

مختصر منهاج القاصدين

ابن قدامة المقدسي
ربيع المهلكات

نبذة: يعتبر هذا الكتاب خلاصة وعصارة لكتاب التزكية الأول إحياء علوم الدين الإمام الغزالي , يناقش الكتاب أعمال القلوب وما يتعلق بها من عادات وعبادات ومهلكات ومنجيات , كما يعتبر هذا الكتاب منهجًا تربويًا ميسرًا للسائرين إلى الله عز وجل .

الفهرس

• الربيع الثالث : ربيع المهلكات

- 0 كتاب شرح عجائب القلوب
 - 1- فصل [في مداخل إبليس في قلب الإنسان]
 - 2- فصل [في ثبات القلوب على الخير]
 - القلب الأول
 - القلب الثاني
 - القلب الثالث
- 0 كتاب رياضة النفس ومعالجة أمراض القلوب
 - 1- فصل في فضيلة حسن الخلق وذم سوء الخلق
 - 2- فصل في بيان الطريق إلى تهذيب الأخلاق
 - 3- فصل في علامات مرض القلب وعوده إلى الصحة
 - 4- فصل في شهوات النفوس
 - 5- فصل بيان علامات حسن الخلق
 - 6- فصل في رياضة الصيان في أول النشوء
 - 7- فصل [في شروط الرياضة]
- 0 كتاب كسر الشهوتين [شهوة البطن وشهوة الفرج]
 - شهوة البطن
 - شهوة الفرج
- 0 كتاب آفات اللسان
 - ذكر آفات الكلام
 - الآفة الأولى: الكلام فيما لا يعنى
 - الآفة الثانية: الخوض في الباطل
 - الآفة الثالثة: التقعر في الكلام
 - الآفة الرابعة: الفحش والسب والبذاء
 - الآفة الخامسة: المزاح
 - الآفة السادسة: السخرية والاستهزاء
 - الآفة السابعة: إفشاء السر، وإخلاف الوعد والكذب في القول واليمين
 - الآفة الثامنة: الغيبة
 - فصل في بيان الأسباب الباعثة على الغيبة وذكر علاجها
 - السب الأول : تشفى الغبط
 - السب الثانى: من البواعث على الغيبة موافقة الأقران
 - السب الثالث: إرادة رفع نفسه بتنقيص غيره
 - الرابع: اللعب والهزل
 - فصل [في حصول الغيبة بسوء الظن]
 - بيان الأعدار المرخصة في الغيبة وكفارة الغيبة
 - الآفة التاسعة: من آفات اللسان النميمة
 - الآفة العاشرة: كلام ذي اللسانين الذي يتردد بين المتعادين
 - الآفة الحادية عشرة: المدح

الأفة الثانية عشرة: الخطأ في فحوى الكلام فيما يرتبط في أمور الدين.

فصل [لا تسأل عن صفات الله عز وجل].

كتاب ذم الغضب والحقد والحسد

من نتائج الغضب

حقيقة الغضب

درجات قوة الغضب

1- فصل في بيان الأسباب المهيجة للغضب

أحدها: أن يتفكر في الأخبار الواردة في فضل كظم الغيظ

الثاني: أن يخوف نفسه من عقاب الله تعالى

الثالث: أن يحذر نفسه عاقبة العداوة، والانتقام.

الرابع: أن يتفكر في قبح صورته عند الغضب

الخامس: أن يتفكر في السبب الذي بدعوه إلى الانتقام.

السادس: أن يعلم أن غضبه إنما كان من شيء جرى على وفق مراد الله تعالى

2- فصل في كظم الغيظ

3- فصل في الحلم

4- فصل في العفو والرفق.

5- باب في الحقد والحسد

علاج الحسد

أسباب الحسد

6- فصل [في سبب كثرة الحسد]

7- باب في ذم الدنيا

8- فصل في بيان حقيقة الدنيا والمذموم منها والمحمود

9- باب في ذم البخل والحرص والطمع

10- بيان في مدح المال

11- بيان ذم الحرص والطمع ومدح القناعة واليأس

12- بيان علاج الحرص والطمع والدواء الذي تكتسب به صفة القناعة

13- فصل [في لزوم القناعة لمن فقد المال]

من حكايات الأسخياء

14- فصل في البخل وذمه

من حكايات البخلاء

15- فصل في فضل الإثارة وبيانه

16- فصل [في حد البخل والسخاء]

كتاب ذم الجاه والرياء وعلاجهما

1- فصل [في أن الجاه والمال هما ركنا الدنيا]

2- بيان علاج حب الجاه

3- فصل [في عدم الاكتراث بدم الناس]

باب في بيان الرياء وحقيقته وأقسامه وذمه

الرياء في الدين

النوع الأول: أن يكون من جهة البدن

النوع الثاني: الرياء من جهة الزي

النوع الثالث: الرياء بالقول

النوع الرابع: الرياء بالعمل

النوع الخامس: المراعاة بالأصحاب والزائرين

1- فصل [في أبواب الرياء بعضها أشد من بعض]

2- بيان الرياء الخفي الذي هو أخفى من ديب النمل

3- فصل في بيان ما يحبط العمل من الرياء وما لا يحبط

4- فصل في دواء الرياء وطريقة معالجة القلب فيه

5- فصل في بيان الرخصة في قصد إظهار الطاعات

- [6- فصل في ترك الطاعات خوفاً من الرباء](#)
- [7- فصل في بيان ما يصح من نشاط العبد بسبب رؤية الخلق وما لا يصح](#)
- 0 [كتاب ذم الكبر والعجب](#)
- [1- الفصل الأول في الكبر](#)
- [1- فصل \[في تقسيم آفات الكبر\]](#)
- [من خصائل المتكبر](#)
- [2- بيان معالجة الكبر واكتساب التواضع](#)
- [2- الفصل الثاني في العجب](#)
- [1- فصل في علاج العجب](#)
- 0 [خامس وعشرون كتاب الغرور وأقسامه ودرجاته](#)
- [1- فصل \[الاغترار واقع بالعلماء والعباد\]](#)
- [الصف الأول: العلماء فأما أهل العلم](#)
- [الصف الثاني: أرباب التعمد والعمل](#)
- [الصف الثالث: المتصوفة](#)
- [الصف الرابع: أرباب الأموال](#)
- [ما يستعان به للتخلص من الغرور](#)

الربع الثالث : ربع المهلكات

▲ كتاب شرح عجائب القلوب

اعلم: أن أشرف ما في الإنسان قلبه، فإنه العالم بالله، العامل له، الساعي إليه، المقرب المكاشف، بما عنده، وإنما الجوارح أتباع وخدام له يستخدمها القلب استخدام الملوك للعبيد. ومن عرف قلبه عرف ربه، وأكثر الناس جاهلون بقلوبهم ونفوسهم، والله يحول بين المرء وقلبه، وحيلولته أن يمنعه من معرفته ومراقبته، فمعرفة القلب وصفاته أصل الدين، وأساس طريق السالكين.

▲ 1- فصل [في مداخل إبليس في قلب الإنسان]

اعلم: أن القلب بأصل فطرته قابل للهدى، وبما وضع فيه من الشهوة والهوى، مائل عن ذلك، والتطارد فيه بين جندي الملائكة والشياطين دائم، إلى أن يفتح القلب لأحدهما، فيتمكن، ويستوطن، ويكون اجتياز الثاني اختلاصاً كما قال تعالى {[من شر الوسواس الخناس](#)} [الناس:4] وهو الذي إذا ذكر الله خنس، وإذا وقعت الغفلة انبسط، ولا يطرد جند الشياطين من القلب إلا ذكر الله تعالى، فإنه لا قرار له مع الذكر.

واعلم: أن مثل القلب كمثل حصن، والشيطان عدو يريد أن يدخل الحصن، ويملكه ويستولى عليه، ولا يمكن حفظ الحصن إلا بحراسة أبوابه، ولا يقدر على حراسة أبوابه من لا يعرفها، ولا يتوصل إلى دفع الشيطان إلا بمعرفة مداخله، ومداخل الشيطان وأبوابه صفات العبد، وهى كثيرة، إلا أنا نشير إلى الأبواب العظيمة الجارية مجرى الدروب التي لا تصيق عن كثرة جنود الشيطان.

فمن أبوابه العظيمة: الحسد، والحرص، فمتى كان العبد حريصاً على شئ، أعماه حرصه وأصمه، وغطى نور بصيرته التي يعرف بها مداخل الشيطان. وكذلك إذا كان حسوداً فيجد الشيطان حينئذ الفرصة، فيحسن عند الحريص كل ما يوصله إلى شهوته، وإن كان منكراً أو فاحشاً.

ومن أبوابه العظيمة: الغضب، والشهوة، والحدة، فإن الغضب غول العقل، وإذا ضعف جند العقل هجم حينئذ الشيطان فلعب بالإنسان. وقد روى أن إبليس يقول: إذا كان العبد حديداً، قلبناه كما يقلب الصبيان الكرة.

ومن أبوابه: حب التزيين في المنزل والثياب والأثاث، فلا يزال يدعو إلى عمارة الدار وتزيين سقفها وحيطانها، والتزين بالثياب، والأثاث، فيخسر الإنسان طول عمره في ذلك.

ومن أبوابه: الشبع، فإنه يقوى الشهوة، ويشغل الطاعة.

ومنها: الطمع في الناس، فإن من طمع في شخص، بالغ بالثناء عليه بما ليس فيه، وداهنه، ولم يأمره بالمعروف، ولم ينهه عن المنكر.

ومن أبوابه: العجلة، وترك التثبت، وقد قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "[العجلة من الشيطان، والتأني من الله تعالى](#)"

ومن أبوابه: حب المال، ومتى تمكن من القلب أفسده، وحمله على طلب المال من غير وجهه، وأخرجه إلى البخل، وخوفه الفقر، فمنع الحقوق اللازمة.

ومن أبوابه: حمل العوام على التعصب في المذاهب، دون العمل بمقتضاها.

ومن أبوابه أيضاً: حمل العوام على التفكير في ذات الله تعالى، وصفاته، وفي أمور لا تبلغها عقولهم حتى يشككهم في أصل الدين.

ومن أبوابه: سوء الظن بالمسلمين، فإن من حكم على مسلم بسوء ظنه، احتقره وأطلق فيه لسانه، ورأى نفسه خيراً منه، وإنما يترشح سوء الظن بخبث الظان، لأن المؤمن يطلب المعاذير للمؤمن، والمنافق يبحث عن عيوبه. وينبغي للإنسان أن يحترز عن مواقف التهم، لئلا يساء به الظن، فهذا طرف من ذكر مداخل الشيطان، وعلاج هذه الآفات سد مداخل بتطهير القلب من الصفات المذمومة، وسيأتي الكلام عن هذه الصفات، بقى للشيطان بالقلب خطرات واجتيازات من غير استقرار، فيمنعه من ذلك ذكر الله تعالى، وعمارة القلب بالتقوى. ومثل الشيطان كمثل كلب جائع يقرب منك، فإن لم يكن بين يديك لحم وخبزه، فإنه ينزجر بأن تقول له: اخسأ، وإن كان بين يديك شيء من ذلك وهو جائع، لم يندفع عنك بمجرد الكلام، فكذلك القلب الخالي عن قوت الشيطان ينزجر عنه بمجرد الذكر. فأما القلب الذي غلب عليه الهوى، فإنه يرفع الذكر إلى حواشيه، فلا يتمكن الذكر من سويدائه، فيستقر الشيطان في السويداء. وإذا أردت مصداق ذلك، فتأمل هذا في صلاتك، وانظر إلى الشيطان كيف يحدث قلبك في مثل هذا الموطن، بذكر السوق، وحساب المعاملين، وتدبير أمر الدنيا.

واعلم: أنه قد عفي عن حديث النفس، ويدخل في ذلك ما هممت به، ومن ترك ذلك خوفاً من الله تعالى كتبت له حسنة وإن تركه لعائق، رجونا له المسامحة، إلا أن يكون عزمًا، فإن العزم على الخطيئة خطيئة، بدليل قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "إذا التقى المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول في النار، قيل: ما بال المقتول؟ قال: إنه كان حريصاً على قتل صاحبه".

وكيف لا تقع المؤاخذة بالعزم، والأعمال بالنية، وهل الكبر والرياء والعجب إلا أمور باطنية؟ ولو أن إنساناً رأى على فراشه أجنبية ظنها زوجته لم يأثم بوطئها، ولو رأى زوجته وظنها أجنبية أثم بوطئها، وكل هذا متعلق بعقد القلب.

▲ 2- فصل [في ثبات القلوب على الخير]

وقد ورد في الحديث أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يقول: "يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك، يا مصرف القلوب اصرف قلبنا إلى طاعتك" وفي حديث آخر: "مثل القلب كمثل ريشة بأرض فلاة تقلبها الرياح"

واعلم: أن القلوب في الثبات على الخير والشر والتردد بينهما ثلاثة:

▲ **القلب الأول: قلب عَمَّرَ بالتقوى، وزكى بالرياضة،** وطهر عن خبائث الأخلاق، فتفرج فيه خواطر الخير من خزائن الغيب، فيمده الملك بالهدى.

▲ **القلب الثاني: قلب مخذول، مشحون بالهوى، مندس بالخبائث،** ملوث بالأخلاق الذميمة، فيقوى فيه سلطان الشيطان لاتساع مكانه، ويضعف سلطان الإيمان، ويمتلئ القلب بدخان الهوى، فيعدم النور، وبصير كالعين الممثلة بالدخان، لا يمكنها النظر، ولا يؤثر عنده زجر ولا وعظ.

▲ **والقلب الثالث: قلب يتدئ فيه خاطر الهوى، فيدعوه إلى الشر، فيلحقه خاطر الإيمان فيدعوه إلى الخير.** مثاله، أن يحمل الشيطان حملة على العقل، ويقوى داعي الهوى ويقول: أما ترى فلاناً وفلاناً كيف يطلقون أنفسهم في هواها، حتى يعد جماعة من العلماء، فتميل النفس إلى الشيطان، فيحمل الملك حملة علي الشيطان، ويقول: هل هلك إلا من نسي العاقبة، فلا تغتر بغفلة الناس عن أنفسهم، أرأيت لو وقفوا في الصيف في الشمس ولك بيت بارد، أكنت توافقهم أم تطلب المصلحة؟ أفتخالفهم في حر الشمس، ولا تخالفهم فيما يؤول إلى النار؟ فتميل النفس إلى قول الملك، ويقع التردد بين الجندين، إلى أن يغلب على القلب ما هو أولى به، فمن خلق للخير يسر له، ومن خلق للشر يسر له: { فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء } [الأنعام: 125] اللهم وفقنا لما تحبه وترضاه.

كتاب رياضة النفس وتهذيب الخلق ومعالجة أمراض القلوب

وذلك في فصول:

أعلم: أن الخلق الحسن صفة من صفات الأنبياء والصديقين، وأن الأخلاق السيئة سموم قاتلة، تنخرط بصاحبها في سلك الشيطان، وأمراض تفوت جاه الأبد، فينبغي أن تعرف العلل ثم التشمير في معالجتها، ونجن نشير إلى جمل من الأمراض، وكيفية معالجتها في الجملة من غير تفصيل، فإن ذلك يأتي مبيناً إن شاء الله تعالى.

الفصل الأول

▲ 1- في فضيلة حسن الخلق ودم سوء الخلق

وقد ذكر شئ من ذلك في آداب الصحبة.

واعلم: أن الناس قد تكلموا في حسن الخلق متعرضين لثمرته لا لحقيقته، ولم يستوعبوا جميع ثمراته، بل ذكر كل منهم ما حضر في ذهنه، وكشف الحقيقة في ذلك أن يقال: كثيراً ما يستعمل حسن الخلق مع الخلق فيقال: فلان حسن بالخلق والخلق. أي حسن الظاهر والباطن، فالمراد بالخلق: الصورة الظاهرة، والمراد بالخلق: الصورة الباطنة، وذلك أن الإنسان مركب من جسد ونفس. فالجسد مدرك بالبصر، والنفس مدركة بالبصيرة، ولكل واحدة منها هيئة وصورة إما جميلة وإما قبيحة، والنفس المدركة بالبصيرة أعظم قدراً من الجسد المدرك بالبصر، ولذلك عظم الله سبحانه وتعالى أمره فقال: { إنني خالق بشراً من طين* فإذا سويته ونفخت فيه من روحي } [ص: 71-72]، فبني على أن الجسد منسوب إلى الطين، والروح منسوب إليه سبحانه وتعالى، فالخلق عبارة عن هيئة للنفس راسخة تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية، فإن كانت الأفعال جميلة سميت خلقاً حسناً، وإن كانت قبيحة سميت خلقاً سيئاً. وقد زعم بعض من غلبت عليه البطالة فاستثقل الرياضة، أن الأخلاق لا يتصور تغييرها، كما لا يتصور تغيير صورة الظاهر.

والجواب: أنه لو كانت الأخلاق لا تقبل التغيير لم يكن للمواعظ والوصايا معنى، وكيف تنكر تغيير الأخلاق ونحن نرى الصيد الوحشي يستأنس، والكلب يعلم ترك الأكل، والفرس تعلم حسن المشي وجودة الانقياد، إلا أن بعض الطباع سريعة القبول للصلاح، وبعضها مستصعبة. وأما خيال من اعتقد أن ما في الجبلة لا يتغير، فاعلم أنه ليس المقصود قمع هذه الصفات بالكلية، وإنما المطلوب من الرياضة رد الشهوة إلى الاعتدال الذي هو وسط بين الإفراط والتفريط، وأما قمعها بالكلية فلا، كيف والشهوة إنما خلقت لفائدة

ضرورة في الجبلة، ولو انقطعت شهوة الطعام لهلك الإنسان، أو شهوة الوقاع لانقطع النسل، ولو انعدم الغضب بالكلية، لم يدفع الإنسان عن نفسه ما يهلكه، وقد قال الله تعالى: **{أشياء على الكفار}** [الفتح: 29] ولا تصدر الشدة إلا عن الغضب، ولو بطل الغضب لامتنع جهاد الكفار، وقال تعالى: **{والكاظمين الغيظ}** [آل عمران: 134] ولم يقل: الفاقدين الغيظ. وكذلك المطلوب في شهوة الطعام الاعتدال دون الشره والتقلل: قال الله تعالى: **{وكلوا واشربوا ولا تسرفوا}** [الأعراف: 31] إلا أن الشيخ المرشد للمريد إذا رأى له ميلاً إلى الغضب أو الشهوة، حسن أن يبالي في ذمها على الطلاق ليرده إلى التوسط، ومما يدل على أن المراد من الرياضة الاعتدال أن السخاء خلق مطلوب شرعاً وهو وسط بين طرفي التقدير والتبذير وقد أثنى الله عليه بقوله: **{والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً}** [الفرقان: 67].

واعلم: أن هذا الاعتدال تارة يحصل بكمال الفطرة منحة من الخلق، فكم من صبي يخلق صادقاً سخياً حليماً، وتارة يحصل بالاكْتِسَاب، وذلك بالرياضة، وهي حمل النفس على الأعمال الجالبة للخلق المطلوب، فمن أراد تحصيل خلق الجود فليتكلف فعل الجود من البذل ليصير ذلك طبعاً له. وكذلك من أراد التواضع تكلف أفعال المتواضعين، وكذلك جميع الأخلاق المحمودة فإن للعادة أثراً في ذلك، كما أن من أراد أن يكون كاتباً تعاطى فعل الكتابة، أو فقيهاً تعاطى فعل الفقهاء من التكرار، حتى ينعطف على قلبه صفة الفقه، إلا أنه لا ينبغي أن يطلب تأثير ذلك في يومين أو ثلاثة، وإنما يؤثر مع الدوام، كما لا يطلب في النمو علو القامة في يومين أو ثلاثة، وللدوام تأثير عظيم. وكما لا ينبغي أن يستهان بقليل الطاعات، فإن دوامها يؤثر في النفس ويغير طبيعتها، فكذلك مساكنة الكسل أيضاً يصير عادة، فيحرم بسببه كل خير. وقد تكتسب الأخلاق الحسنة بمصاحبة أهل الخير، فإن الطبع لص يسرق الخير والشر. قلت: ويؤيد ذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم: **"المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل"**.

2- الفصل الثاني

▲ في بيان الطريق إلى تهذيب الأخلاق

قد عرفت أن الاعتدال في الأخلاق هو الصحة في النفس، والميل عن الاعتدال سقم ومرض، فاعلم أن مثال النفس في علاجها كالبدن في علاجه، فكما أن البدن لا يخلق كاملاً، وإنما يكمل بالتربية والغذاء، كذلك النفس تخلق ناقصة قابلة للكمال، وإنما تكمل بالتزكية وتهذيب الأخلاق، والتغذية بالعلم. وكما أن البدن إذا كان صحيحاً، فشان الطبيب العمل على حفظ الصحة، وإن كان مريضاً، فشانه جلب الصحة إليه، كذلك النفس إذا كانت زكية طاهرة مهذبة الخلاق، فينبغي أن يسعى بحفظها وجلب مزيد القوة إليها، وإن كانت عديمة الكمال، فينبغي أن يسعى بجلب ذلك إليه. وكما أن العلة الموجبة لمرض البدن لا تعالج إلا بضدها، إن كانت من حرارة فبالبرودة وإن كانت من البرودة فبالحرارة، فكذلك الأخلاق الرذيلة التي هي من مرض القلب، علاجها بضدها، فيعالج مرض الجهل بالعلم، ومرض البخل بالسخاء، ومرض الكبر بالتواضع، ومرض الشره بالكف عن المشتتهى. وكما أنه لا بد من احتمال مرارة الدواء، وشدة الصبر عن المشتتهيات لصالح الأبدان المريضة، فكذلك لا بد من احتمال المجاهدة، والصبر على مداومة مرض القلب بل أولى، فإن مرض البدن يخلص منه بالموت، ومرض القلب عذاب يدوم بعد الموت أبداً وينبغي للذي يطب نفوس المريدين أن لا يهجم عليهم بالرياضة في فن مخصوص، حتى يعرف أخلاقهم وأمراضهم، إذ ليس علاج كل مريض واحداً، فإذا رأى جاهلاً بالشرع علمه، وإذا رأى متكبراً حملة على ما يوجب التواضع، أو شديد الغضب ألزمه الحلم. وأشد حاجة الرئاض لنفسه، قوة العزم، فمتى كان متردداً بعد فلاحه، ومتى أحس من نفسه ضعف

العزم تصبر، فإذا انقضت عزمها عاقبها لئلا تعاود، كما قال رجل لنفسه: تتكلمين فيما لا يعينك ؟ لعاقبتك بصوم سنة.

3- الفصل الثالث : ▲، **في علامات مرض القلب وعوده إلى الصحة.** وبيان الطريق إلى معرفة الإنسان عيوب نفسه.

اعلم: أن كل عضو خلق لفعل خاص، فعلاية مرضه أن يتعذر منه ذلك الفعل، أو يصدر منه مع نوع من الاضطراب، فمرض اليد تعذر البطش، ومرض العين تعذر الإبصار، ومرض القلب أن يتعذر عليه فعله الخاص به الذي خلق لأجله، وهو العلم والحكمة والمعرفة، وحب الله تعالى وعبادته، وإيثار ذلك على كل شهوة. فلو أن الإنسان عرف كل شئ ولم يعرف الله سبحانه، كان كأنه لم يعرف شيئاً. وعلامة المعرفة: الحب، فمن عرف الله أحبه، وعلامة المحبة أن لا يؤثر عليه شيئاً من المحبوبات، فمن أثر عليه شيئاً من المحبوبات فقلبه مريض، كما أن المعدة التي تؤثر أكل الطين على أكل الخبز - وقد سقطت عنها شهوة الخبز - مريضة.

ومرض القلب خفي قد لا يعرفه صاحبه، فلذلك يغفل عنه، وإن عرفه صعب عليه الصبر على مرارة دوائه، لأن دوائه مخالف الهوى، وإن وجد الصبر لم يجد طبيباً حاذقاً يعالجه، فإن الأطباء هم العلماء والمرضى قد استولى عليهم والطبيب المريض قلما يلتفت إلى علاجه، ولهذا صار الداء عضالاً، واندرس هذا العلم، وأنكر طب القلوب ومرضها بالكلية وأقبل الناس على أعمال ظاهرها عبادات وباطنهما عادات فهذه علامة أصل المرض. وأما عاقبته وعوده إلى الصحة بعد المعالجة، فهو أن ينظر إلى العلة، فإن كان يعالج داء البخل، فعلاجه بذل المال، ولكنه لا يسرف، ويصير إلى حد التبذير فيحصل داء آخر فيكون كمن يعالج البرودة بالحرارة الغالبة حتى تغلب الحرارة، فيكون داءً أيضاً، بل المطلوب الاعتدال. وإذا أرادت أن تعرف الوسط، فانظر إلى نفسك، فإن كان إمساك المال وجمعه أذ عندك، وأيسر عليك من بذله لمستحقه، فاعلم أن الغالب عليك خلق البخل، فعالج نفسك على البذل، وإن صار البذل للمستحق أذ عندك، وأخف عليك من الإمساك فقد غلب عليك التبذير، فارجع إلى المواظبة على الامساك، ولا تزال تراقب نفسك، وتستدل على خلقك بتيسير الأفعال وتيسيرها، حتى تنقطع علاقة قلبك عن المال فلا تميل إلى بذله ولا إمساكه، بل يصير عندك كالماء، فلا تطلب فيه إمساكه لحاجة محتاج، أو بذله لحاجة محتاج، فكل قلب صار كذلك، فقد جاء الله سليماً في هذا المقام. ويجب أن يكون سليماً على سائر الأخلاق حتى لا تكون له علاقة بشيء من الدنيا، حتى ترتحل النفس عن الدنيا منقطعة العلائق منها، غير ملتفتة إليها، ولا متشوقة إلى أسبابها، فحينئذ ترجع إلى ربها رجوع النفس مطمئنة ولما كان الوسط الحقيقي بين الطرفين في غاية الغموض، بل هو أدق من الشعر وأحد من السيف فلا جرم من استوى على هذا الصراط في الدنيا، جاز على مثل هذا الصراط في الآخرة، ولأجل عسر الاستقامة أمر العبد أن يقول في كل يوم مرات **{اهدنا الصراط المستقيم}** [الفاتحة: 6]، ومن لم يقدر على الاستقامة، فليجتهد على القرب من الاستقامة فان النجاة بالعمل الصالح. ولا تصدر الأعمال الصالحة إلا عن الأخلاق الحسنة، فليتنفد كل عبد صفاته وأخلاقه، وليشتغل بعلاج واحد بعد واحد، وليصبر ذو العزم على مضمض هذا الأمر، فإنه سيحلو كما يحلو الفطام للطفل بعد كراهته له، فلو رد إلي الثدي لكرهه، ومن عرف قصر العمر بالنسبة إلى مدة حياة الآخرة حمل مشقة سفر أيام لتنعيم الأبد، فعند الصباح يحمد القوم السرى.

واعلم: أن الله تعالى إذا أراد بعبد خيراً بصره بعيوب نفسه، فمن كانت له بصيرة، لم تخف عليه عيوبه، وإذا عرف العيوب أمكنه العلاج، ولكن أكثر الناس جاهلون بعيوبهم، يرى أحدهم القذى في عين أخيه ولا يرى الجذع في عينه. فمن أراد الوقوف على عيب نفسه فله في ذلك أربع طرق: الطريقة الأولى: أن يجلس بين يدي شيخ بصير بعيوب

النفس، يعرف عيوب نفسه وطرق علاجها، وهذا قد عز في هذا الزمان وجوده، فمن وقع به، فقد وقع بالطبيب الحاذق فلا ينبغي أن يفارقه. الطريقة الثانية: أن يطلب صديقاً صدوقاً بصيراً متديناً، وينصبه رقيباً على نفسه لينبهه على المكروه من أخلاقه وأفعاله. وقد كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول: رحم الله امرءاً أهدي إلينا عيوبنا. وسأل سلمان رضى الله عنه لما قدم عليه من عيوبه، فقال: سمعت أنك جمعت بين إدامين على مائدة، وإن لك حلتين: حلة بالليل، وحلة بالنهار، فقال: هل بلغك غير هذا؟ قال: لا، قال: أما هذا فقد كفيتهما. وكان عمر رضى الله عنه يسأل حذيفة: هل أنا من المنافقين؟ وهذا لأن كل من علت مرتبته في اليقظة زاد اتهامه لنفسه، إلا أنه عز في هذا الزمان وجود صديق على هذه الصفة، لأنه قل في الأصدقاء من يترك المداهنة، فيخبر

بالعيب أو يترك الحسد، فلا يزيد على قدر الواجب. وقد كان السلف يحبون من ينبههم على عيوبهم، ونحن الآن في الغالب أبغض الناس إلينا من يعرفنا عيوبنا. وهذا دليل على ضعف الإيمان، فإن الأخلاق السيئة كالعقارب، لو أن منها نبهنا على أن تحت ثوب أحدنا عقرباً لتقلدنا له منة، واشتغلنا بقتلها، والأخلاق الرديئة أعظم ضرراً من العقرب على ما لا يخفى.

الطريقة الثالثة: أن يستفيد معرفة نفسه من السنة أعدائه، فإن عين السخط تبدي المساوئ، وانتفاع الإنسان بعدو مشاجر يذكر عيوبه، أكثر من انتفاعه بصديق مدهن يخفى عنه عيوبه.

الطريقة الرابعة: أن يخالط الناس، فكل ما يراه مذموماً فيما بينهم، يجتنبه.

▲ 4. فصل [في شهوات النفوس]

وقد ذكرنا أن شهوات النفوس لم توضع إلا لفائدة، إذ لولا شهوة المطعم ما حصل تناول الغذاء، ولولا شهوة الجماع لانقطع النسل، وإنما المذموم فضول الشهوات وطغيانها، وثمة قوم لم يفهموا هذا القدر، فأخذوا يتركون كل ما تشتهي النفس، وهذا ظلم لها بإسقاط حقاها، فإن لها حقاً بدليل قوله صلى الله عليه وآله وسلم: **"إن لنفسك عليك حقاً"** حتى إن قائلاً منهم يقول: لى كذا وكذا سنة اشتهي كذا فلا أتأوله، وهذا انحراف عن الحلّ وخلاف سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فإنه كان يتناول المشتهى من الحلو والعسل وغيرهما، فلا يلتفت إلى زاهد قل علمه، فحرم نفسه حظها من المشتهى على الإطلاق، فإنه إلى الظلم أقرب منه إلى العدل، وإنما يترك المشتهى إذا صعبت الطريق إليه، مثل أن لا يحصل إلا بوجه مكروه، أو يخاف من تناوله انحلال عزمه، فتطمع النفس في استدامته، أو يحذر من ذلك زيادة شيع، فيثقله عن عبادته، فأما تناوله في بعض الأوقات لتقوية النفس، فذلك كالطب للمريض، يمدح ولا يذم، ولا بأس بالرفق بالنفس لتقوى على السلوك.

▲ 5. بيان علامات حسن الخلق

ربما جاهد المرید نفسه حتى ترك الفواحش والمعاصي، ثم ظن أنه قد هذب خلقه، واستغنى عن المجاهدة، وليس كذلك، فإن حسن الخلق هو مجموع صفات المؤمنين، وقد وصفهم الله تعالى فقال: **{إنما المؤمنون الذين ذكر الله وحلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون* الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون* أولئك هم المؤمنون حقا}** [الأنفال: 2-3-4] وقال: **{ التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساحدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين }** [سورة التوبة: 112] وقال تعالى: **{ قد أفلح المؤمنون }** إلى قوله **{ أولئك هم**

الوارثون [المؤمنون: آية 1-10]، وقال: **{ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً }** [الفرقان: 63] إلى آخر السورة، فمن أشكل عليه حاله فليعرض نفسه على هذه الآيات، فوجود جميع هذه الصفات علامة حسن الخلق، وفقد جميعها علامة سوء الخلق ووجود بعضها دون البعض يدل على البعض دون البعض فليشتغل بحفظ ما وجده وتحصيل ما فقده. وقد وصف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: **" والذي نفسي بيده لا يؤمن عبداً حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه "**. وفيهما أيضاً من حديث أبي هريرة رضى الله عنه، عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: **" من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذي جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت "** وفى حديث آخر: **" أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم أخلاقاً "**. ومن حسن الخلق: احتمال الأذى، ففى الصحيحين أن أعرابياً جذب رداء النبى صلى الله عليه وآله وسلم حتى أثرت حاشيته في عاتقه صلى الله عليه وآله وسلم، ثم قال: يا محمد، مر لى من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ثم ضحك، ثم أمر له بعتاء. وكان إذا أذاه قومه قال: **" اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون "** وكان أوبس القرني إذا رماه الصبيان بالحجارة يقول: يا إختاه، إن كان ولا بد... فارموني بالصغار لئلا تدموا ساقي فتمعنوني من الصلاة. وخرج إبراهيم بن أدهم إلى بعض البرارى، فاستقبله جندي فقال: أين العمران؟ فأشار إلى المقبرة، فضرب رأسه فشجه، فلما أخبر أنه إبراهيم، جعل يقبل يده ورجله، فقال: إنه لما ضرب رأسي سألت الله له الجنة، لأنى علمت أنى أوجر بضربه إياي فلم أحب أن يكون نصيبي منه الخير، ونصيبه منى الشر، وأجتاز بعضهم في سكة، فطرح عليه رماد من السطح، فجعل أصحابه يتكلمون. فقال: من استحق النار فصولح على الرماد، ينبغي له أن لا يغضب. فهذه نفوس ذلت بالرياضة، فاعتدلت أخلاقهم، ونقيت عن الغش بواطنها، فأثمرت الرضى بالقضاء، ومن لم يجد من نفسه بعض هذه العلامات التي وجدها هؤلاء، فينبغي أن يداوم الرياضة ليصل، فإنه بعد ما وصل.

▲ 6- فصل في رياضة الصبيان في أول النشوء

اعلم: أن الصبي أمانة عند والديه، وقلبه جوهرة ساذجة، وهى قابلة لكل نقش، فإن عود الخير نشأ عليه وشاركه أبواه ومؤدبه في ثوابه، وإن عود الشر نشأ عليه، وكان الوزر في عنق وليه، فينبغي أن يصونه ويؤدبه ويهذبه، ويعلمه محاسن الأخلاق، ويحفظه من قرناء السوء، ولا يعود التتعم، ولا يحب إليه أسباب الرفاهية فيضيع عمره في طلبها إذا كبر. بل ينبغي أن يراقبه من أول عمره، فلا يستعمل في رضاءة وحضانتها إلا امرأة صالحة متدينة تأكل الحلال، فإن اللبن الحاصل من الحرام لا بركة فيه، فإذا بدت فيه مخايل التمييز وأولها الحياء، وذلك علامة النجاة وهى مبشرة بكمال العقل عند البلوغ، فهذا يستعان على تاديبه بحيائه. وأول ما يغلب عليه من الصفات بشره الطعام، فينبغي أن يعلم آداب الأكل، ويعوده أكل الخبز وحده في بعض الأوقات لئلا يآلف الإدام فيراه كالحتم، ويقبح عنده كثرة الأكل، بأن يشبه الكثير الأكل بالبهايم، ويحبب إليه الثياب البيض دون الملونة والإبريسم ويقرر عنده أن ذلك من شأن النساء والمخنثين، ويمنعه من مخالطة الصبيان الذين عودوا التتعم، ثم يشغله في المكتب بتعليم القرآن والحديث وأحاديث الأخبار، ليغرس في قلبه حب الصالحين، ولا يحفظ من الأشعار التي فيها ذكر العشق.

ومتى ظهر من الصبي خلق جميل وفعل محمود، فينبغي أن يكرم عليه، ويجازى بما يفرح به، ويمدح بين أظهر الناس، فإن خالف ذلك في بعض الأحوال تغوفل عنه ولا يكتشف، فإن عاد عوتب سراً وخوف من اطلاع الناس عليه، ولا يكثر عليه العتاب، لأن ذلك يهون عليه سماع الملامة، وليكن حافظاً هيبه الكلام معه. وينبغي للأم أن تخوفه بالأب، وينبغي أن يمنع النوم نهاراً، فإنه يورث الكسل، ولا يمنع النوم ليلاً ولكنه يمنع الفرش الوطيئة لتتصلب أعضاؤه.

ويتعود الخشونة في المفريش والملبس والمطعم. ويعود المشي والحركة والرياضة لئلا يغلب عليه الكسل. ويمنع أن يفتخر على أقرانه بشيء مما يملكه أبواه، أو بمطعمه أو ملبسه. ويعود التواضع والإكرام لمن يعاشره. ويمنع أن يأخذ شيئاً من صبي مثله، ويعلم أن الأخذ دناءة، وأن الرفعة في الإعطاء. ويقبح عنده حب الذهب والفضة. ويعود أن لا يبصق في مجلسه ولا يتمخط ، ولا يتتأب بحضرة غيره، ولا يضع رجلاً على رجل، ويمنع من كثرة الكلام. ويعود أن لا يتكلم إلا جواباً، وأن يحسن الاستماع إذا تكلم غيره ممن هو أكبر منه، وأن يقوم لمن هو فوقه ويجلس بين يديه.

ويمنع من فحش الكلام، ومن مخالطة من يفعل ذلك، فإن أصل حفظ الصبيان حفظهم من قرناء السوء. ويحسن أن يفسح له بعد خروجه من المكتب في لعب جميل، ليستريح به من تعب التأديب، كما قيل: روح القلوب تع الذكر. وينبغي أن يعلم طاعة والديه ومعلمه وتعظيمهم. وإذا بلغ سبع سنين أمر بالصلاة، ولم يسامح في ترك الطهارة ليتعود، ويخوف من الكذب والخيانة، وإذا قارب البلوغ، أقيت إليه الأمور.

وأعلم: أن الأطعمة أدوية، والمقصود منها تقوية البدن على طاعة الله تعالى، وأن الدنيا لا بقاء لها، وأن الموت يقطع نعيمها، وهو منتظر في كل ساعة، وأن العاقل من تزود لآخرته، فإن كان نشوؤه صالحاً ثبت هذا في قلبه، كما ثبت النقش في الحجر. قال سهل بن عبد الله: كنت ابن ثلاث سنين، وأنا أقوم بالليل أنظر إلي صلاة خالي محمد بن سوار، فقال لي خالي يوماً: ألا تذكر الله الذي خلقك؟ قلت: كيف أذكره؟ قال: قل بقلبك ثلاث مرات من غير أن تحرك لسانك: الله معي، الله ناظر إلي، الله شاهدي، فقلت ذلك ليالي، ثم أعلمته، فقال: قلها في كل ليلة إحدى عشر مرة.

فقلت ذلك، فوقع في قلبي حلاوته، فلما كان بعد سنة، قال لي خالي: احفظ ما علمتك، ودم عليه إلى أن تدخل القبر، فلم أزل على ذلك سنين فوجدت له حلاوة في سري ثم قال لي خالي: يا سهل من كان الله معه، وهو ناظر إليه، وشاهد عليه، هل يعصيه؟ إياك والمعصية ومضيت إلى المكتب، وحفظت القرآن، وأنا ابن ست سنين أو سبع، ثم كنت أصوم الدهر، وقوتي من خبز الشعير، ثم بعد لك كنت أقوم الليل كله.

▲ 7- فصل [في شروط الرياضة]

واعلم: أن من شاهد الآخرة بقلبه مشاهدة يقين، أصبح بالضرورة مريداً لها، زاهداً في الدنيا، فإن من كان معه خرزة، فرأى جوهرة نفيسة، لم يبق له رغبة في الخرزة، فإذا قيل له: بعها بالجوهرة، أسرع في ذلك.

واعلم: أن من رزقه الله تعالى الانتباه لذلك، فإن عليه لسلوك الرياضة شرطاً لا بد من تقديمه، ومعتصماً لا بد من التمسك به، وحصناً لا بد من التحصن به. فأما الشرط، فهو رفع الحجاب بترك الذنوب. وأما المعتصم، فشيخ يدلّه على الطريق لئلا تختطفه الشياطين في السبل. وأما الحصن، فالخلوة، وعليه من الوظائف مخالفه الهوى، وكثرة الذكر والاقتصاد في الأوراد. ومنتهى الرياضة أن يجد قلبه مع الله أبداً، ولا يمكن ذلك إلا بأن يخلو عن غيره، ولا يخلو إلا بطول المجاهد، فهذا منهاج رياضة المرید وترتيبه في التدريب، فأما تفصيل الرياضة في كل صفحة، فسيأتي إن شاء الله تعالى .

كتاب كسر الشهوتين [شهوة البطن وشهوة الفرج]

▲ شهوة البطن من أعظم المهلكات، وبها أخرج آدم عليه السلام من الجنة، ومن شهوة البطن تحدث شهوة الفرج والرغبة في المال، ويتبع ذلك آفات كثيرة، كلها من بطن الشيع. وفي حديث النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : "المؤمن يأكل في معي واحد،

والكافر يأكل في سبعة أمعاء". وفى حديث آخر: " ما ملأ ابن آدم وعاءً شراً من بطنه، حسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة، فثلث لطعامه، وثلث لشربه، وثلث لنفسه".

وقال عقبة الراسبي: دخلت على الحسن وهو يتغذى، فقال: هلم، فقلت: أكلت حتى لا أستطيع، فقال: سبحان الله أو يأكل المسلم حتى لا يستطيع أن يأكل؟. وقد بالغ جماعة من الزهاد في التقلل من الأكل والصبر على الجوع، وقد بينا عيب ما سلكوا في غير هذا الكتاب، ومقام العدل في الأكل رفع اليدين مع بقاء شىء من الشهوة، ونهاية المقام الحسن قوله صلى الله عليه وآله وسلم: "ثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه". فالأكل في مقام العدل يصح البدن وينفى المرضى، وذلك أن يتناول الطعام حتى يشتهي، ثم يرفع يده وهو يشتهي، والدوام على التقلل من الطعام يضعف القوى، وقد قلل أقوام مطاعمهم حتى قصروا عن الفرائض، ووطنوا بجهلهم أن ذلك فضيلة، وليس كذلك، ومن مدح الجوع، فإنما أشار إلى الحالة المتوسطة التي ذكرناها. وطريق الرياضة في كسر شهوة البطن أن من تعود استدامة الشبع، فينبغي له أن يقلل من مطعمه يسيراً مع الزمان، إلى أن يقف على حد التوسط الذي أشرنا إليه، وخير الأمور أوساطها، فالأولى تناول ما لا يمنع من العبادات، ويكون سبباً لبقاء القوة، فلا يحس المتناول بجوع ولا شبع، فحينئذ يصح البدن، وتجتمع الهمة، ويصفو الفكر، ومتى زاد في الأكل أورثه كثرة النوم، وبلادة الذهن، وذلك بتكثير البخار في الدماغ حتى يغطي مكان الفكر، وموضع الذكر، ويجلب أمراضاً أخرى. وليحذر من ترك شيئاً من الشهوات أن تتطرق إليه آفة الرياء، وقد كان بعضهم يشتري الشهوة وبعقلها في بيته وهو زاهد فيها، يستر بها زهده، وهذا هو نهاية الزهد، الزهد في الزهد بإظهار ضده، وهو عمل الصديقين، لأنه يجرع نفسه كأس الصبر مرتين، والثانية أمر. وأما ▲ شهوة الفرج، فاعلم أن شهوة الوقاع سلطت على الآدمي لفائدتين: إحداهما: بقاء النسل، والثانية ليدرج لذة يقيس عليها لذات الآخرة، فإن ما لم يدرك جنسه بالذوق، لا يعظم إليه الشوق، إلا أنه إذ لم ترد هذه الشهوة إلى الاعتدال، جلبت آفات كثيرة، ومحنًا، ولولا ذلك ما كان النساء حبايل الشيطان. وفى الحديث أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: " ما تركت في الناس بعدى فتنة أضر على الرجال من النساء". وقال بعض الصالحين: لو ائتمني رجل على بيت مال، لظننت أن أودى إليه الأمانة، ولو ائتمني على زنجية أخلو بها ساعة واحدة، ما ائتمنت نفسي عليها. وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: " لا يخلو رجل بامرأة فإن ثالثهما الشيطان". وقد ينتهي الإفراط في هذه الشهوة، حتى تصرف همة الرجل إلى كثرة التمتع بالنساء فيشغله عن ذكر الآخرة، وربما آل إلى الفواحش، وقد تنتهي بصاحبها إلى العشق، وهو أقبح الشهوات، وأجدرها أن تستحي منه، وقد يقع عند كثير من الناس عشق المال، والجاه، واللعب بالنرد، والشطرنج، والطنبور، ونحو ذلك، فتستولي هذه الأشياء على القلوب فلا يصبرون عنها. ويسهل الاحتراز عن ذلك في بدايات الأمور، فإن آخرها يفتقر إلى علاج شديد، وقد لا ينجح، ومثاله من يصرف عنان الدابة عند توجهها إلى باب تريد دخوله، فما أهون منعها يصرف عنانها، ومثال من يعالجه بعد استحكامه، مثال من يتركها حتى تدخل الباب وتجاوزه، ثم يأخذ بذنبها يجرها إلى وراء، وما أعظم التفاوت بين الأمرين

كتاب آفات اللسان

آفاته كثيرة ومتنوعة، ولها في القلب حلاوة، ولها بواعث من الطبع، ولا نجاة من خطرها إلا بالصمت، فلنذكر أولاً فضيلة الصمت، ثم نتبعه الآفات مفصلة إن شاء الله تعالى. اعلم: أن الصمت يجمع الهمة ويفرغ الفكر. وفى الحديث، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: " من يضمن لى ما بين لحييه، وما بين رجليه أضمن له الجنة". وفى حديث آخر: " لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه" ((أخرجه ابن

أبى الدنيا في الصمت" من حديث أنس، وفي سنده على بن مسعدة، قال البخاري: فيه نظر، وقال ابن عدي: أحاديثه غير محفوظة.))

وفي حديث معاذ في آخره: (كف عليك هذا) فقلت: يا رسول الله، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ قال: (ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم، أو قال: على مناخرهم، ألا حصائد ألسنتهم؟). وفي حديث آخر: "من كف لسانه ستر الله عورته) وقال ابن مسعود: ما شيء أحوج إلى طول سجن من لساني. وقال أبو الدرداء: أنصف أذنك من فيك، فإنما جعلت لك أذنان وفم واحد لتسمع أكثر مما تتكلم به. وقال مخلد بن الحسين: ما تكلمت منذ خمسين سنة بكلمة أريد أن أعتذر منها.

▲ 1- ذكر آفات الكلام:

▲ الآفة الأولى: الكلام فيما لا يعنى.

واعلم: أن من عرف قدر زمانه، وأنه رأس ماله، لم ينفقه إلا في فائدة، وهذه المعرفة توجب حبس اللسان عن الكلام فيما لا يعنى، لأنه من ترك الله تعالى واشتغل فيما لا يعنى، كان كمن قدر على أخذ جوهرة، فأخذ عوضها مدرة، وهذا خسران العمر. وفي الحديث الصحيح، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: "من حسن إسلام المرء تركه مالا يعينه". وقيل للقمان الحكيم: ما بلغ من حكمتك؟ قال: لا أسأل عما كفيته، ولا أتكلم بما لا يعنيني. وقد روي أنه دخل على دواء عليه السلام وهو يسرد درعاً، فجعل يتعجب مما رأى، فأراد أن يسأله عن ذلك، فمنعته حكمته فأمسك، فلما فرغ داود عليه السلام، قام ولبس الدرع ثم قال: نعم الدرع للحرب. فقال لقمان: الصمت حكم وقليل فاعله.

▲ الآفة الثانية: الخوض في الباطل، وهو الكلام في المعاصي، كذكر مجالس الخمر، ومقامات الفساق. وأنواع الباطل كثيرة. وعن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: "إن العبد ليتكلم بالكلمة يزل بها في النار أبعد مما بين المشرق والمغرب، وقريب من ذلك الجدال والمرء وهو كثرة الملاحاة(1) للشخص لبيان غلطة وإفحامه، والباعث على ذلك الترفع.

فينبغي للإنسان أن ينكر المنكر من القول، ويبين الصواب، فإن قبل منه وإلا ترك الممارسة، هذا إذا كان الأمر معلقاً بالدين، فأما إذا كان في أمور الدنيا، فلا وجه للمجادلة فيه، وعلاج هذه الآفة بكسر الكبر الباعث على إظهار الفضل، وأعظم من المرء الخصومة، فإنها أمر زائد على المرء. وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: "أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم". وهذه الخصومة نعنى بها الخصومة بالباطل أو بغير علم، فأما من له حق فالأولى أن يصدق(2) عن الخصومة، مهما أمكن لأنها، توغر الصدر، وتهيج الغضب الغضب، وتورث الحقد، وتخرج إلى تناول العرض.

▲ الآفة الثالثة: التعر في الكلام، وذلك يكون بالتشدد(3) وتكلف السجع. وعن أبي ثعلبة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إن أبغضكم إلى وأبعدكم منى يوم القيامة مساويكم أخلاقاً الثرثارون(4) المتشددون المتفيهقون(5). ولا يدخل في كراهة السجع والتصنع ألفاظ الخطيب، والتذكير من غير إفراط، ولا إغراب، لأن المقصود من ذلك تحريك القلوب، وتشويقها، ورشاقة اللفظ ونحو ذلك.

▲ الآفة الرابعة: الفحش والسب والبذاء(6) ((البذاء، بالمد: الفحش، وفلان يذىء اللسان من قوم أذياء، والمرأة بذية.)) ((البذاء، بالمد: الفحش، وفلان يذىء اللسان من قوم أذياء، والمرأة بذية.)) ونحو ذلك، فإنه مذموم منهى عنه، ومصدره الخبث

واللؤم. وفى الحديث: "إياكم والفحش، فإن الله لا يحب الفحش ولا التفحش". "الجنة حرام على كل فاحش".

وفى حديث آخر: " ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذيء". واعلم: أن الفحش والبذاء هو التعبير عن الأمور المستقبحة بالعبارات الصريحة، وأكثر ما يكون ذلك في ألفاظ الجماع وما يتعلق به، فإن أهل الخير يتحاشون عن تلك العبارات ويكونونها ومن الآفات: الغناء وقد سبق فيه كلام في غير هذا الموضوع.

▲ الآفة الخامسة: المزاح، أما اليسير منه، فلا ينهى عنه إذا كان صدقاً.

فإن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يمزح ولا يقول إلا حقاً، فإنه قال لرجل: "يا ذا الأذنين"، وقال لآخر: "إنا حاملوك على ولد الناقة"، وقال للعجوز: "إنه لا يدخل الجنة عجوز" ثم قرأ: {إنا أنشأناهن إنشاء* فجعلناهن أبكاراً} [الواقعة: 36-35] ، وقال لآخرى: "زوجك الذى فى عينيه بياض؟". (7) فقد اتفق في مزاحه صلى الله عليه وآله وسلم ثلاثة أشياء:

أحدها: كونه حقاً

والثاني: كونه مع النساء والصبيان، ومن يحتاج إلى تأديبه من ضعفاء الرجال.

والثالث: كونه نادراً، فلا ينبغي أن يحتج به من يريد الدوام عليه، فإن حكم النادر ليس كحكم الدائم، ولو أن إنساناً دار مع الحبشة ليلاً ونهاراً ينظر إلي لعبهم واحتج بأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقف لعائشة وأذان لها أن تنظر إلى الحبشة، لكان غلطاً، لندور ذلك، فالإفراط بى المزاح والمداومة عليه منهي عنه، لأنه يسقط الوقار، ويوجب الضغائن والأحقاد، وأما اليسير كما تقدم، من نحو نوع مزاح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فإن فيه انبساطاً وطيب نفس.

▲ الآفة السادسة: السخرية والاستهزاء، ومعنى السخرية: الاحتقار والاستهانة، والتنبيه على العيوب والنقائص على وجه يضحك منه، وقد يكون ذلك بالمحاكاة في الفعل والقول، وقد يكون بالشارة والإيماء، وكله ممنوع منه في الشرع، ورد النهى عنه في الكتاب والسنة.

▲ الآفة السابعة: إفشاء السر، وإخلاف الوعد والكذب في القول واليمين، وكل ذلك منهي عنه، إلا ما رخص فيه من الكذب لزوجه، وفى الحرب فإن ذلك يباح وضابطه أن كل مقصود محمود لا يمكن التوصل إليه إلا بالكذب، فهو فيه مباح إن كان هذا المقصود مباحاً. وإن كان المقصود واجباً، فهو واجب، فينبغي أن يحترز عن الكذب مهما أمكن. وتباح المعاريض، لقوله صلى الله عليه وآله وسلم: "إن في المعاريض مندوحة عن الكذب" وإنما تصلح المعاريض عند الحاجة إليها، فأما مع غير الحاجة، فمكروهة لأنها تشبه الكذب. فمن المعاريض ما روي عن عبد الله بن رواحة رضى الله عنه أنه أصاب جارية له، فعلمت امرأته، فأخذت شفرة، ثم أتت فوافقتة قد قام عنها، فقالت: أفعلتها؟ فقال: ما فعلت شيئاً، قالت، لتقرآن القرآن أو لأبعجك بها، فقال رضى الله عنه:

وفينا رسول الله يتلو كتابه ذا انشق معروف من الفجر ساطع

بيت يجافى جنبه عن فراشه إذا استثقلت بالكافرين المضاجع

أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا به موقنات أن ما قال واقع

قالت: آمنت بالله وكذبت بصري. وكان النخعي إذا طلب قال للجارية: قولي لهم: اطلبوه في المسجد.

▲ **الآفة الثامنة: الغيبة**، وقد ورد الكتاب العزيز بالنهاى عنها، وشبه صاحبها بأكل الميتة. وفى الحديث: "إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام". وعن أبى برزة الأسلمى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه: لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من تتبع عورة أخيه تتبع الله عورته ومن تتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف بيته". وفى حديث آخر: "إياكم والغيبة، فإن الغيبة أشد من الزنا، وإن الرجل قد يزنى ويشرب، ثم يتوب ويتوب الله عليه، وإن صاحب الغيبة لا يغفر الله له حتى يغفر صاحبه" وقال على بن الحسين رضى الله عنهما: إياك والغيبة، فإنها إدام كلاب الناس والأحاديث والآثار في ذلك كثيرة مشهورة.

ومعنى الغيبة: أن تذكر أخاك الغائب بما يكره إذا بلغه، سواء كان نقصاً في بدنه، كالعمش، والعورة، والحول، والقرع، والطول، والقصر، ونحو ذلك. أو في نسبه، كقولك: أبوه نبطي، أو هندي أو فاسق، أو خسيس، ونحو ذلك. أو في خلقه كقولك، هو سئ الخلق بخيل متكبر ونحو ذلك. أو في ثوبه، كقولك: هو طويل الذيل، واسع الكم، وسخ الثياب. والدليل على ذلك، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم سئل عن الغيبة قال: "ذكرك أخاك بما يكره". قال: أرأيت إن كان في أخي ما أقول يا رسول الله؟ قال: "إن كان في أخاك ما تقول فقد اغتبتته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته". واعلم أن كل ما يفهم منه مقصود الذم، فهو داخل في الغيبة، سواء كان بكلام أو غيره، كالغمز، والإشارة والكتابة بالقلم، فإن القلم أحد اللسانين. وأقبح أنواع الغيبة، غيبة المتزهدين المرأين، مثل أن يذكر عندهم إنسان فيقولون: الحمد لله الذي لم يبتلنا بالدخول على السلطان، والتبذل في طلب الحطام، أو يقولون: نعوذ بالله من قلة الحياء، أو نسأل الله العافية، فإنهم يجمعون بين ذم المذكور ومدح أنفسهم. وربما قالوا أحدهم عند ذكر إنسان: ذاك المسكين قد بلى بأفة عظيمة، تاب الله علينا وعليه، فهو يظهر الدعاء ويخفى قصده. واعلم: أن المستمع للغيبة شريك فيها، ولا يتخلص من إثم سماعها إلا أن ينكر بلسانه، فإن خاف قبله وإن قدر على القيام، أو قطع الكلام بكلام آخر، لزمه ذلك. وقد روى عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: من أذل عنده مؤمن وهو يقدر أن ينصره أذله الله عز وجل على رؤوس الخلائق" وقال صلى الله عليه وآله وسلم: "من حمى مؤمناً من منافق يعيبه، بعث الله ملكاً يحمى لحمه يوم القيامة من نار جهنم" ورأى عمر بن عتبة موله مع رجل وهو يقع في آخر، فقال له: ويلك نزه سمعك عن استماع الخنا كما تنزه نفسك عن القول به، فالمستمع شريك القائل، إنما نظر إلى شر ما في وعائه فأفرغه في وعائك، ولو ردت كلمة سفيه في فيه لسعد بها رادها كما شقي بها قائلها. وقد وردت أحاديث في حق المسلم على المسلم، تقدمت في كتاب الصحة.

▲ 2- فصل في بيان الأسباب الباعثة على الغيبة وذكر علاجها

أما الأسباب التي تبعث على الغيبة فكثيرة. منها: ▲ **تشفى الغيظ**، بأن يجرى من إنسان في حق آخر سبب يوجب غيظه، فكلما هاج غضبه تشفى بغيبة صاحبه.

▲ **السبب الثانى: من البواعث على الغيبة موافقة الأقران** ومجاملة الرفقاء ومساعدتهم، فإنهم إذا كانوا يتفكحون في الأعراض، رأى هذا أنه إذا أنكر عليهم أو قطع كلامهم استثقلوه ونفروا عنه، فيساعدتهم ويرى ذلك من حسن المعاشرة.

▲ **الثالث: إرادة رفع نفسه بتنقيص غيره**، فيقول: فلان جاهل، وفهمه ركيك، ونحو ذلك، غرضه أن يثبت في ضمن ذلك فضل نفسه، ويربهم أنه أعلم منه. وكذلك الحسد في ثناء الناس على شخص وحبهم له وإكرامهم، فيقدح فيه ليقصد زوال ذلك.

▲ **الرابع: اللعب والهزل**، فيذكر غيره بما يضحك الناس به على سبيل المحاكاة، حتى إن بعض الناس يكون كسبه من هذا.

وأما علاج الغيبة، فليعلم المغتاب أنه بالغيبة متعرض لسخط الله تعالى ومقته، وأن حسناته تنقل إلى المغتاب إليه، وإن لم يكن له حسنات نقل إليه من سيئات خصمه، فمن استحضر ذلك لم يطلق لسانه بالغيبة. وينبغي إذا عرضت له الغيبة أن يتفكر في عيوب نفسه، ويشغل بإصلاحها، ويستحي أن يعيب وهو معيب، كما قال بعضهم:

فإن عبت قومًا بالذي فيك مثله فكيف يعيب الناس من هو أعور

وإذا عبت قومًا بالذي ليس فيهم فذلك عند الله والناس أكبر

وإن ظن أنه سليم من العيوب، فليتشاغل بالشكر على نعم الله عليه، ولا يلوث نفسه بأقبح العيوب وهو الغيبة، وكما لا يرضى لنفسه بغيبة غيره له، فينبغي أن لا يرضاهما لغيره من نفسه. فليتنظر في السبب الباعث على الغيبة، فيجتهد على قطع، فإن علاج العلة يكون بقطع سببها. وقد ذكرنا بعض أسبابها، فيعالج الغضب بما سيأتي في كتاب الغضب، ويعالج موافقة الجلاس بأن يعلم أن الله تعالى يغضب على من طلب رضى المخلوقين بسخطه، بل ينبغي أن يغضب على رفقاءه، وعلى نحو هذا معالجة البواقى.

▲ 3- فصل [في حصول الغيبة بسوء الظن]

وقد تحصل الغيبة بالقلب، وذلك سوء الظن بالمسلمين. والظن ما تركز إليه النفس وبميل القلب، فليس لك أن تظن بالمسلم شراً، إلا إذا انكشف أمر لا يحتمل التأويل فإن أخبرك بذلك عدل، فمال قلبك إلى تصديقه، كنت معذوراً، لأنك لو كذبتك كنت قد أسأت الظن بالمخبر، فلا ينبغي أن تحسن الظن بواحد وتسيئه بآخر، بل ينبغي أن تبحث، هل بينهما عداوة وحسد؟ فتتطرق التهمة حينئذ بسبب ذلك، ومتى خطر لك خاطر سوء على مسلم، فينبغي أن تزيد في مراعاته وتدعو له بالخير، فإن ذلك يغيظ الشيطان ويدفعه عنك، فلا يلقى إليك خاطر السوء خيفة من اشتغالك بالدعاء والمراعاة. وإذا تحققت هفوة مسلم، فأنصحه في السر. واعلم: أن من ثمرات سوء الظن التجسس، فإن القلب لا يقنع بالظن، بل يطلب التحقيق فيشتغل بالتجسس، وذلك منهى عنه، لأنه يوصل إلى هتك ستر المسلم، ولو لم ينكشف لك، كان قلبك أسلم للمسلم.

▲ 4- بيان الأعدار المرخصة في الغيبة وكفارة الغيبة

اعلم: أن المرخص في ذكر مساوئ الغير، وهو غرض صحيح في الشرع، لا يمكن التوصل إليه إلا به، وذلك يدفع إثم الغيبة، وهو أمور:

أحدها التظلم، فإن للمظلوم أن يذكر الظالم إذا استدعاه إلى من يستوفى حقه.

الثانى: الاستعانة على تغيير المنكر، ورد الظالم إلى منهاج الصلاح.

الثالث: الاستفتاء، مثل أن يقول للمفتى ظلمني فلان، أو أخذ حقي، فكيف طريقي في الخلاص، فالتعيين مباح، والأولى التعريض، وهو أن يقول: ما تقول في رجل ظلمه أبوه أو أخوه ونحو ذلك؟ والدليل على إباحة التعيين حديث هند حين قالت: إن أبا سفيان رجل شحيح ولم ينكر عليها النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

الأمر الرابع: تحذير المسلمين، مثل أن ترى متفهماً يتردد إلى مبتدع أو فاسق، وتخاف أن يتعدى إليه ذلك، فلك أن تكشف له الحال. وكذلك إذا عرفت من عبدك السرقة أو الفسق، فتذكر ذلك للمشتري. وكذلك المستشار في التزويج أو إيداع الأمانة، له أن يذكر ما يعرفه على قصد النصح للمستشير، لا على قصد الوقعة، إذا علم أنه لا ينزجر إلا بالتصريح.

الخامس: أن يكون معروفاً بلقب، كالأعرج، والأعمش، فلا إثم على من يذكره به، وإن وجد عن ذلك معدلاً كان أولى.

السادس: أن يكون مجاهراً بالفسق، ولا يستنكف أن يذكر به.

وقد روى عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: "من ألقى جلباب الحياء فلا غيبة له" وقيل للحسن: الفاجر المعلن بفجوره، ذكرى له بما فيه غيبة: قال: لا، ولا كرامة.

وأما كفارة الغيبة، فاعلم أن المغتاب قد جنى جنايتين:

إحداهما: على حق الله تعالى، إذ فعل ما نهاه عنه، فكفارة ذلك التوبة والندم.

والجناية الثانية: على محارم المخلوق، فإن كانت الغيبة قد بلغت الرجل، جاء إليه واستحله وإظهار له الندم على فعله وقد روى أبو هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: "من كانت عنده مظلمة لأخيه، من مال أو عرض، فليأتها فليستحلها منه قبل أن يؤخذ وليس عنده درهم ولا دينار، فإن كانت له حسنات أخذ من حسناته فأعطيتها هذا، وإلا أخذ من سيئات هذا فألقى عليه". وإن كانت الغيبة لم تبلغ الرجل، جعل مكان استحلاله الاستغفار له، لئلا يخبره بما لا يعلمه، فيوغر صدره. وقد ورد في الحديث: "كفارة من اغتبت أن تستغفر له" (8) وقال مجاهد: كفارة أكلك لحم أخيك أن تتنى عليه وتدعو له بخير، وكذلك إن كان قد مات.

▲ الآية التاسعة: من آفات اللسان النميمة، وفي الحديث ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: "لا يدخل الجنة قتات" وهو النمام. واعلم: أن النميمة تطلق في الغالب على نقل قول إنسان في إنسان، مثل أن يقول: قال فيك فلان كذا وكذا، وليست مخصوصة بهذا، بل حدها كشف ما يكره كشفه، سواء كان من الأقوال أو الأعمال، حتى لو رآه يدفن مالا لنفسه فذكره فهو نميمة وكل من نقلت إليه النميمة، مثل أن يقال له: قال فيك فلان كذا وكذا أو فعل في حقك كذا، ونحو ذلك فعليه ستة أشياء:

الأول: أن لا يصدق الناقل، لأن النمام فاسق مردود الشهادة.

الثاني: أن ينهاه عن ذلك وينصحه.

الثالث أن يبغضه في الله، فإنه بغيض عند الله.

الرابع: أن لا يظن بأخيه الغائب السوء.

الخامس: أن لا يحمل ما حكى له على التجسس والبحث، لقوله تعالى: {ولا تحسسوا} [الحجرات:12].

السادس: أن لا يرضى لنفسه ما نهى النمام عنه، فلا يحكى نميته. ويروى أن سليمان بن عبد الملك قال لرجل: بلغني أنك وقعت في، وقلت كذا وكذا. فقال الرجل: ما فعلت،

فقال سليمان: صدقت، اذهب بسلام. وقال يحيى بن أبى كثير: يفسد النمام في ساعة ما لا يفسد الساحر في شهر. وقد حكى أن رجلاً ساوم بعبد، فقال مولاه: إني أبرأ منك من النميمة والكذب، فقال: نعم، أنت برئ منهما، فاشتراه. فجعل يقول لمولاه إن امرأتك تبغي وتفعل، وإنها تريد أن تقتلك، ويقول للمرأة: إن زوجك يريد أن يتزوج عليك ويتسرى، فإن أردت أن أعطفه عليك، فلا يتزوج ولا يتسرى، فخذ الموسيقى واحلقي شعرة من حلقة إذا نام، وقال للزوج: إنها تريد أن تقتلك إذا نمت. قال فذهب فتناوم لها، فجاءت بموسى لتحلق شعرة من حلقة، فأخذ بيدها فقتلها، فجاء أهلها فاستعدوا عليه فقتلوه.

▲ **الآفة العاشرة: كلام ذي اللسانين الذي يتردد بين المتعادين**، وينقل كلام كل واحد إلى الآخر، ويكلم كل واحد بكلام يوافقه، أو يعده أنه ينصره، أو يثنى على الواحد في وجهه ويذمه عند الآخر. وفي الحديث: "إن شر الناس ذو الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه". واعلم: أن هذا فيمن لم يضطر إلى ذلك، فأما إذا اضطر إلى مداراة الأمراء جاز قال أبو الدرداء رضى الله عنه: إنا لنكشر (9) < في وجوه أقوام، وإن قلوبنا لتلغنهم . ومتى قدر أن لا يظهر موافقتهم لم يجز له.

▲ **الآفة الحادية عشرة: المدح**، وله آفات:

منها: ما يتعلق بالمدح، ومنها: ما يتعلق بالممدوح. فأما آفات المدح، فقد يقول ما لا يتحققه، ولا سبيل للاطلاع عليه، مثل أن يقول: إنه ورع وزاهد، وقد يفرط في المدح فينتهي إلى الكذب، وقد يمدح من ينبغي لأن يذم. وقد روى في حديث: "إن الله تعالى يغضب إذا مدح الفاسق" وقال الحسين: من دعا لظالم بالبقاء، فقد أحب أن يعصى الله. وأما الممدوح، فإنه يحدث فيه كبيراً أو إعجاباً، وهما مهلكان ولهذا قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم لما سمع رجلاً يمدح رجلاً: "ويلك، قطعت عنق صاحبك". الحديث وهو مشهور. وقد رُوينا عن الحسن قال كان عمر رضى الله عنه قاعداً ومعه الدرة والناس حوله، إذ أقبل الجارود، فقال رجل: هذا سيد ربيعة، فسمعها عمر رضى الله عنه ومن حوله، وسمعها الجارود، فلما دنا منه خفقه (10)

بالدرة، فقال: مالي ولك يا أمير المؤمنين؟ قال: مالي ولك، أما سمعتها؟ قال: سمعتها، فمه؟ قال: خشيت أن يخالط قلبك منها شئ فأحببت أن أطأئ (11) منك.

ولأن الإنسان إذا أثنى عليه بالخير رضى عن نفسه، وظن أنه قد بلغ المقصود، فيفتر عن العمل، ولهذا قال: . فأما إذا سلم المدح من هذه الآفات لم يكن به بأس، فقد أثنى النبي صلى الله عليه وآله وسلم على أبى بكر وعمر رضى الله عنهما وغيرهما من الصحابة رضى الله عنهم. وعلى الممدوح أن يكون شديد الاحتراز من آفة الكبر والعجب والفتور عن العمل، ولا ينجو من هذه الآفات إلا أن يعرف نفسه، ويتفكر في أن المدح لو عرف منه ما يعرف من نفسه ما مدحه. وقد روى أن رجلاً من الصالحين أثنى عليه، فقال: اللهم إن هؤلاء لا يعرفوني وأنت تعرفني.

▲ **الآفة الثانية عشرة: الخطأ في فحوى الكلام فيما يرتبط في أمور الدين**، لاسيما فيما يتعلق بالله تعالى، ولا يقدر على تقويم اللفظ بذلك إلا العلماء الفصحاء، فمن قصر في علم أو فصاحة، لم يخل كلامه عن الزلل، لكن يعفو الله عنه لجهله. مثال ذلك ما روى عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: "لا يقل أحدكم: ما شاء الله شئت، ولكن ليقل، ما شاء الله ثم شئت" (12) وذلك لأن في العطف المطلق تشريكاً وتسوية، وقريب من ذلك إنكاره على الخطيب قوله: "ومن يعصهما فقد غوى" وقال: "ومن يعص الله ورسوله". وقال صلى الله عليه وآله وسلم: "لا يقل أحدكم: عيدي وأمتي، كلكم عبيد الله، وكل نسائكم إماء الله، ولكن ليقل، غلامي وجاريتي". وقال النخعي: إذا قال الرجل للرجل: يا حمار، يا خنزير، قيل له يوم القيامة: رأيتني خلقته حماراً، أو رأيتني خلقته

خنزيراً. فهذا وأمثاله مما يدخل في الكلام، ولا يمكن حصره، ومن * تأمل ما أوردناه في آفات اللسان، علم أنه إذا أطلق لسانه لم يسلم، وعند ذلك يعرف سر قوله صلى الله عليه وآله وسلم: "من صمت نجاً"، لأن هذه الآفات مهالك وهى على طريق المتكلم، فإن سكت سلم.

▲ 5. فصل [لا تسأل عن صفات الله عز وجل]

ومن آفات العوام سؤالهم عن صفات الله سبحانه وتعالى وكلامه. اعلم: أن الشيطان يخيل إلى العامي أنك بخوضك في العلم تكون من العلماء وأهل الفضل، فلا يزال يحب إليه ذلك حتى يتكلم بما هو كفر وهو لا يدري. قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "يوشك الناس أن يسألوا، حتى يقولوا: هذا الله خلق الخلق، فمن خلق الله؟" فسؤال العوام عن غوامض العلم أعظم الآفات، ويحثهم عن معاني الصفات مما يفسدهم لا مما يصلحهم، إذ الواجب عليهم التسليم، فالأولى بالعامي الإيمان بما ورد به القرآن، ثم التسليم لما جاء به الرسول من غير بحث، واشتغالهم بالعبادات، فإن اشتغالهم بالبحث عن أسرار العلم، كبحث سائمة الدواب عن أسرار الملك.

كتاب ذم الغضب والحقد والحسد

اعلم: أن الغضب شعلة من النار، وأن الإنسان ينزع فيه عند الغضب عرق إلى الشيطان اللعين، حيث قال: {خلقتني من نار وخلقته من طين} [الأعراف: 12] فإن شأن الطين السكون والوقار، وشأن النار التلطي والاشتعال، والحركة والاضطراب. و▲ من نتائج الغضب: الحقد والحسد، ومما يدل على ذم الغضب قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم للرجل الذي قال له: أوصني، قال: "لا تغضب"، فردد عليه مراراً، قال: "لا تغضب". وفى حديث آخر أن ابن عمر رضى الله عنه سأل النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ماذا يبعدني من غضب الله عز وجل؟ قال: "لا تغضب". وفى المتفق عليه من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب". وعن عكرمة في قوله تعالى: {وسيداً وحسوراً} [آل عمران: 39] قال: السيد الذي يملك نفسه عند الغضب ولا يغلبه غضبه. وروينا أن ذا القرنين لقي ملكاً من الملائكة فقال: علمني علماً ازداد به إيماناً وبقيناً، قال: لا تغضب، فإن الشيطان أقدر ما يكون على ابن آدم حين يغضب، فرد الغضب بالكظم، وسكنه بالتؤدة، وإياك والعجلة، فإنك إذا عجلت أخطأت حظك، وكن سهلاً ليناً للقريب والبعيد، ولا تكن جباراً عنيداً. وروينا أن إبليس لعنه الله بدا لموسى عليه السلام، فقال يا موسى: إياك والحدة، فإني ألعب بالرجل الحديد كما يلعب الصبيان بالكرة، وإياك والنساء، فإني لم انصب فحاً في نفسي قط أثبت في نفسي من فح أنصبه بامرأة، وإياك والشح، فإني أفسد على الشحيح الدنيا والآخرة.

وكان يقال: اتقوا الغضب، فإنه يفسد الإيمان كما يفسد الصبر العسل، والغضب عدو العقل.

و▲ حقيقة الغضب: غليان دم القلب لطلب الانتقام، فمتى غضب الإنسان ثارت نار الغضب ثوراناً يغلى به دم القلب، وينتشر بى العروق، ويرتفع إلى أعالي البدن، كما يرتفع الماء الذي يغلى في القدر، ولذلك يحمر الوجه والعين والبشرة وكل ذلك يحكى لون ما وراءه من حمرة الدم، كما تحكى الزجاجة لون ما فيها، وإنما ينبسط الدم إذا غضب على من دونه واستشعر القدرة عليه. فإن كان الغضب صدر ممن فوقه، وكان معه يأس من الانتقام، تولد منه انقباض الدم من ظاهر الجلد إلى جوف القلب، فصار حزناً، ولذلك يصفر اللون، وإن كان الغضب من نظير يشك فيه، تردد الدم بين انقباض وانبساط، فيحمر ويصفر ويضطرب، فالانتقام هو قوت لقوة الغضب. والناس في ▲ قوة الغضب

على درجات ثلاث: إفراط، وتفريط، واعتدال. فلا يحمَد الإفراط فيها، لأنه يخرج العقل والدين عن سياستهما، فلا يبقى للإنسان مع ذلك نظر ولا فكر ولا اختيار. والتفريط في هذه القوة أيضاً مذموم، لأنه يبقى لا حمية له ولا غيرة، ومن فقد الغضب بالكلية، عجز عن رياضة نفسه، إذ الرياضة إنما تتم بتسلط الغضب على الشهوة، فيغضب على نفسه عند الميل إلى الشهوات الخسيسة، ففقد الغضب مذموم، فينبغي أن يطلب الوسط بين الطرفين. وأعلم: أنه متى قويت نار الغضب والتهبت، أعمت صاحبها، وأصمته عن كل موعظة، لأن الغضب يرتفع إلى الدماغ، فيغطي على معادن الفكر، وربما تعدى إلى معادن الحس، فتظلم عينه حتى لا يرى بعينه، وتسود الدنيا في وجهه، ويكون دماغه على مثال كهف أضرمت فيه نار، فاسود جوه، وحمى مستقره، وامتلأ بالدخان، وكان فيه سراج ضعيف فانطفأ، فلا يثبت فيه قدم، ولا تسمع فيه كلمة، ولا ترى فيه صورة، ولا يقدر على إطفاء النار، فكذلك يفعل بالقلب والدماغ، وربما زاد الغضب فقتل صاحبه. ومن أثار الغضب في الظاهر، تغير اللون، وشدة الرعدة في الأطراف، وخروج لأفعال عن الترتيب، واستحالة الخلقة، وتعاطى فعل المجانين، ولو رأى الغضبان صورته في حال غضبه وقبحها لأنف نفسه من تلك الحال، ومعلوم أن قبح الباطن أعظم.

▲ 1- فصل في بيان الأسباب المهيجة للغضب

قد عرفت أن علاج كل علة بحسم مادتها وإزالة أسبابها. فمن أسبابه: العجب، والمزاج، والممارسة، والمضادة، والغدر وشدة الحرص على فضول المال والجاه، وهذه الأخلاق رديئة مذمومة شرعاً، فينبغي أن يقابل كل واحد من هذه بما يضاده، فيجتهد على حسم مواد الغضب وقطع أسبابه.

وأما إذا هاج الغضب فيعالج بأمور:

▲ **أحدها: أن يتفكر في الأخبار الواردة في فضل كظم الغيظ، والعفو، والحلم،** والاحتمال، كما جاء في البخاري من حديث ابن عباس رضى الله عنهما، أن رجلاً استأذن على عمر رضى الله عنه، فأذن له، فقال له: يا ابن الخطاب، والله ما تعطينا الجزل (1)، ولا تحكم بيننا بالعدل، فغضب عمر رضى الله عنه، حتى هم أن يوقع به (2). فقال الحر بن قيس: يا أمير المؤمنين إن الله عز وجل قال لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم: **خذ العفو وأمر بالمعروف وأعرض عن الجاهلين** [الأعراف: 199] وإن هذا من الجاهلين، فوالله ما جاوزها عمر رضى الله عنه حين تلاها عليه، وكان وقافاً عند كتاب الله عز وجل. ▲ **الثاني: أن يخوف نفسه من عقاب الله تعالى،** وهو أن يقول: قدرة الله على أعظم من قدرتي على هذا الإنسان، فلو أمضيت فيه غضبي، لم آمن أن يمضى الله عز وجل غضبه على يوم القيامة فأنا أحوج ما أكون إلى العفو. وقد قال الله تعالى في بعض الكتب: يا ابن آدم! اذكرني عند الغضب، أذكرك حين أغضب، ولا أمحك فيمن أمحك.

▲ **الثالث: أن يحذر نفسه عاقبة العداوة، والانتقام،** وتشمير العدو في هدم أعراضه، والشماتة بمصائبه، فإن الإنسان لا يخلو عن المصائب، فيخوف نفسه ذلك في الدنيا إن لم يخف من الآخرة وهذا هو تسليط شهوة على غضب ولا ثواب عليه، لأنه تقديم لبعض الحظوظ على بعض، إلا أن يكون محذوره أن يتغير عليه أمر يعينه على الآخرة، فيثاب على ذلك.

▲ **الرابع: أن يتفكر في قبح صورته عند الغضب** على ما تقدم، وأنه يشبه حينئذ الكلب الضارى، والسبع العادي، وأنه يكون مجانباً لأخلاق الأنبياء والعلماء في عاداتهم، لتميل نفسه إلى الاقتداء بهم.

▲ **الخامس: أن يتفكر في السبب الذي يدعو إلى الانتقام**، مثل أن يكون سبب غضبه أن يقول له الشيطان: إن هذا يحمل منك على العجز، والذلة والمهانة، وصغر النفس، وتصير حقيراً في أعين الناس، فليقل لنفسه: تأنفين من الاحتمال الآن، ولا تأنفين من خزي يوم القيامة والافتضاح إذا أخذ هذا بيدك وانتقم منك، وتحذرين من أن تصغري في أعين الناس، ولا تحذرين من أن تصغري عند الله تعالى وعند الملائكة والنبين. وينبغي أن يكظم غيظه، فذلك يعظمه عند الله تعالى، فماله وللناس؟ أفلا يجب أن يكون هو القائم يوم القيامة إذا نودي: ليقم من وقع أجره على الله، فلا يقوم إلا من عفا، فهذا وأمثاله ينبغي أن يقرره على قلبه.

▲ **السادس: أن يعلم أن غضبه إنما كان من شيء جرى على وفق مراد الله تعالى، لا على وفق مراده**، فكيف يقدم مراده على مراد الله تعالى، هذا ما يتعلق بالقلب.

وأما العمل، فينبغي له السكون، والتعوذ، وتغيير الحال، وإن كان قائماً جلس، وإن كان جالساً اضطجع، وقد أمرنا بالوضوء أيضاً عند الغضب، فهذه الأمور وردت في الأحاديث. أما الحكمة في الوضوء عند الغضب، فقد بينها في الحديث. كما روى أبو وائل قال: كنا عند عروة بن محمد، فكلمه رجل بكلام، فغضب غضباً شديداً فقام وتوضأ، ثم جاء فقال: حدثني أبي عن جدي عطية - وكانت له صحبة - قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: " **إن الغضب من الشيطان، وإن الشيطان خلق من النار، وإنما تطفأ النار بالماء، فإذا غضب أحدكم فليتوضأ**". وأما الجلوس والاضطجاع، فيمكن أن يكون إنما أمر بذلك ليقرب من الأرض التي منها خلق، فيذكر أصله فيذل، ويمكن أن يكون ليتواضع بذله، لأن الغضب ينشأ من الكبر، بدليل ما روى أبو سعيد، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه ذكر الغضب وقال: " **من وجد شيئاً من ذلك، فليصق خده بالأرض**".

وقيل: غضب المهدي على رجل، فدعا بالسياط فلما رأى شيبب شدة غضبه، وإطراق الناس، فلم يتكلموا بشيء، قال: يا أمير المؤمنين، لا تعضبن لله بأشد مما غضب لنفسه، فقال: خلوا سبيله.

▲ 2- فصل في كظم الغيظ

قال الله تعالى: { **والكاظمين الغيظ** } [آل عمران: 134] فذكر ذلك في معرض المدح. وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: " **من كظم غيظاً وهو قادر على أن ينفذه، دعاه الله على رؤوس الخلائق حتى يخيره من أي الحور شاء**". وروى عن عمر رضی الله عنه أنه قال: من اتقى الله لم يشف غيظه، ومن خاف الله لم يفعل ما يريد، ولولا يوم القيامة لكان غير ما ترون.

▲ 3- فصل في الحلم

روى أبو هريرة رضی الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: " **إنما العلم بالتعلم، والحلم بالتحلم**" (. "اطلبوا العلم، واطلبوا مع العلم السكينة والحلم، لينوا لمن تعلمون ولمن تعلمون منه، ولا تكونوا من جبابرة العلماء، فيغلب جهلكم عليكم". وقال صلى الله عليه وآله وسلم لأشج بن قيس (3): " **إن فيك خلقين يحبهما الله ورسوله: الحلم والأناة**" (4). وشتتم رجل ابن عباس رضی الله عنه فلما قضى مقتله، فقال: يا عكرمة، انظر هل للرجل حاجة فنقضها؟ فنكس الرجل رأسه واستحى. وأسمع رجل معاوية كلاماً شديداً ف قيل له: لو عاقبته؟ فقال: إني لأستحي أن يضيق حلمي عن ذنب أحد من رعيتي. وأقسم معاوية نطعاً، فبعث منها إلى شيخ من أهل دمشق فلم يعجبه فجعل عليه يميناً أن يضرب رأس معاوية، فأتى معاوية فأخبره، فقال له معاوية: أوف بندرك وارفق بالشيخ. وجاء غلام لأبي ذر وقد كسر رجل شاة له، فقال له: من كسر رجل

هذه؟ قال: أنا فعلته عمداً لأغيظك، فضررتني، فتأثم. فقال: لأعظين من حرصك على غيظي، فأعتقه. وشتتم رجل عدي ابن حاتم وهو ساكت، فلما فرغ من مقالته قال: إن كان بقي عندك شيء فقل قبل أن يأتي شباب الحي، فإنهم إن سمعوك تقول هذا لسيدهم لم يرضوا. ودخل عمر بن عبد العزيز المسجد ليلة في الظلمة، فمر برجل نائم فعضر به، فرفع رأسه وقال: أمجنون أنت؟ فقال عمر: لا، فهم به الحرس، فقال عمر: مه، إنما سألتني أمجنون؟ فقلت: لا. ولقي رجل على بن الحسين رضى الله عنهما، فسبه، فثارت إليه العبيد، فقال: مهلاً، ثم أقبل على الرجل فقال: ما ستر عنك من أمرنا أكثر، ألك حاجة نعينك عليها؟ فاستحى الرجل، فألقى عليه خميصة (5) كانت عليه، وأمر له بألف درهم، فكان الرجل بعد ذلك يقول: أشهد أنك من أولاد الرسول. وقال رجل لوهب بن منبه: إن فلاناً شتمك، فقال: ما وجد الشيطان بريداً غيرك.

▲ 4- فصل في العفو والرفق

أعلم: أن معنى العفو أن تستحق حقاً فتسقطه، وتؤدي عنه من قصاص أو غرامة، وهو غير الحلم والكظم. وقال الله تعالى: {والعافين عن الناس}. [آل عمران: 134] وقال: {فمن عفا وأصلح فأجره على الله} [الشورى: 40]، وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، قال: "ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله". وعن عقبة بن عامر، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "يا عقبة، ألا أخبرك بأفضل أخلاق أهل الدنيا والآخرة؟ تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك". وروى أن منادياً ينادى يوم القيامة: ليقم من وقع أجره على الله؟ فلا يقوم إلا من عفا عمن ظلمه. وعن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: وإن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي عليه ما لا يعطي على العنف. وفي "الصحيحين" من حديث عائشة رضى الله عنها، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: "إن الله عز وجل يحب الرفق في الأمر كله". وفي حديث آخر "من يحرم الرفق يحرم الخير".

▲ 5- باب في الحقد والحسد

أعلم: أن الغيظ إذا كظم لعجز عن التشفي في الحال رجع إلى الباطن، فاحتقن فيه فصار حقدًا. وعلامته دوام بغض الشخص واستثقاله والنفور منه، فالحقد ثمرة الغضب، والحسد من نتائج الحقد. وعن الزبير بن العوام رضى الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "دب إليكم داء الأمم قبلكم الحسد والبغضاء". وفي "الصحيحين" عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: "لا تباغضوا، ولا تقاطعوا، ولا تحاسدوا، ولا تدابروا، كونوا عباد الله إخواناً". وفي حديث آخر عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: "إن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب". وفي حديث آخر أنه قال: "يطلع عليكم من هذا الفج (6) رجل من أهل الجنة، فطلع رجل، فسئل عن عمله، فقال: إني لا أجد لأحد من المسلمين في نفسي غشاً ولا حسداً على خير أعطاه الله إياه". وروينا أن الله تبارك وتعالى يقول: "الحاسد عدو نعمتي، متسخط لقضائي، غير راض بقسمتي بين عبادي".

وقال ابن سيرين: ما حسدت أحداً على شيء من أمر الدنيا، لأنه إن كان من أهل الجنة، فكيف أحسده على شيء من أمر الدنيا، وهو يصير إلى الجنة، وإن كان من أهل النار، فكيف أحسده على شيء من أمر الدنيا، وهو يصير إلى النار. وقال إبليس لنوح عليه السلام: إياك والحسد، فإنه صيرني إلى هذه الحال. وأعلم: أن الله تعالى إذا نعم على أخيك نعمة، فلك فيها حالتان:

إحداها: أن تكره تلك النعمة وتحب زوالها، فهذا هو الحسد.

والحالة الثانية: أن لا تكره وجودها ولا تحب زوالها، ولكنك تشتهي لنفسك مثلها، فهذا يسمى غبطة. قال المصنف رحمه الله:

قلت: واعلم أنى ما رأيت أحداً حقق الكلام في هذا كما ينبغي، ولا بد لى من كشفه فأقول: اعلم: أن النفس قد جلبت على حب الرفعة، فهي لا تحب أن يعلوها جنسها، فإذا علا عليها، شق عليها وكرهته، وأحبت زوال ذلك ليقع التساوي، وهذا أمر مركوز في الطباع. وقد روى أبو هريرة رضى الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: "ثلاث لا ينجو منهن أحد: الظن، والطيرة، والحسد، وسأحدثكم ما المخرج من ذلك، إذا ظننت فلا تحقق، وإذا تطيرت فامض، وإذا حسدت فلا تبغ". **و▲ علاج الحسد، تارة بالرضى بالقضاء، وتارة بالزهد في الدنيا، وتارة بالنظر فيما يتعلق بتلك النعم من هموم الدنيا وحساب الآخرة، فيتسلى بذلك ولا يعمل بمقتضى ما في النفس أصلاً، ولا ينطق، فإذا فعل ذلك لم يضره ما وضع في جبلته. فأما من يحسد نبياً على نبوته، فيجب أن لا يكون نبياً، أو عالماً على علمه، فيؤثر أن يرزق ذلك أو يزول عنه، فهذا لا عذر له، ولا تجبل عليه إلا النفوس الكافرة أو الشريرة، فأما إن أحب أن يسبق أقرانه، ويطلع على ما لم يدركوه، فإنه لا يأثم بذلك، فإنه لم**

يؤثر زوال ما عندهم عنهم، بل أحب الارتفاع عنهم ليزيد حظه عند ربه، كما لو استبق عبدان إلى خدمة مولاها، فأحب أحدهما أن يستبق. وقد قال الله تعالى: **﴿وفى ذلك فليتنافس المتنافسون﴾** [المطففين: 26] (7). وفى "الصحيحين" من حديث ابن عمر رضى الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: "لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله عز وجل القرآن، فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار، ورجل آتاه الله مالاً، فهو ينفقه في الحق آناء الليل وآناء النهار".

▲ والحسد له أسباب:

أحدها: العداوة، والتكبر، والعجب، وحب الرياسة، وخبث النفس، وبخلها، وأشدّها: العداوة والبغضاء، فإن من آذاه إنسان بسبب من الأسباب، وخالفه في غرضه، أبغضه قلبه، ورسخ في نفسه الحقد.

والحقد يقتضى التشفي والانتقام، فمهما أصاب عدوه من البلاء فرح بذلك، وظنه مكافأة من الله تعالى له، ومهما أصابته نقمة ساءه ذلك، فالحسد يلزم البغض والعداوة ولا يفارقهما، وإنما غاية التقى أن لا يبغى، وأن يكره ذلك من نفسه، فأما أن يبغض إنساناً فيستوي عنده مسرته ومساءته، فهذا غير ممكن.

وأما الكبر، فهو أن يصيب بعض نظرائه مالاً أو ولاية، فيخاف أن يتكبر عليه ولا يطيق تكبره، وأن يكون من أصاب ذلك دونه، فلا يحتمل ترفعه عليه أو مساواته. وكان حسد الكفار لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قريباً من ذلك. قال الله تعالى: **﴿وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾** [الزخرف: 31] وقال في حق المؤمنين: **﴿أهؤلاء من الله عليهم من بيننا﴾** [الأنعام: 53] وقال في آية أخرى: **﴿ما أنتم إلا بشر مثلنا﴾** [يس: 15] وقال: **﴿ولئن أطعتم بشراً مثلكم إنكم إداً لخاسرون﴾** [المؤمنون: 34] فعبجوا وأنفوا من أن يفوز برتبة الرسالة بشر مثلهم فحسدوهم.

وأما حب الرياسة والجاه، فمثاله أن الرجل الذي يريد أن يكون عديم النظير في فن من الفنون، إذا غلب عليه حب الثناء، واستفزه الفرح بما يمدح به، من أنه أوجد العصر، وفريد الدهر في فنه، إذا سمع بنظير له في أقصى العالم، ساءه ذلك وأحب موته، أو زوال النعمة التي بها يشاركه في علم، أو شجاعة، أو عبادة، أو صناعة، أو ثروة، أو غير ذلك، وليس ذلك إلا لمحض الرياسة بدعوى الانفراد. وقد كان علماء اليهود ينكرون

معرفة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، ولا يؤمنون خوفاً من بطلان رئاستهم. وأما خبث النفس وشحها على عباد الله، فإنك تجد من الناس من لا يشتغل برئاسة ولا تكبر، وإذا وصف عند حسن حال عبد من عباد الله تعالى فيما أنعم عليه به، شق عليه ذلك، وإذا وصف له اضطراب أمور الناس وإدبارهم، وتغيص عيشهم، فرح به، فهو أبدأ يحب الإدبار غيره، ويبخل بنعمة الله على عباده، كأنهم يأخذون ذلك من ملكه وخزائنه.

وقد قال بعض العلماء: البخيل من يبخل بمال نفسه، والشحيح الذي يبخل بمال غيره، فهذا يبخل بنعمى الله على عباده الذين ليس بينهم وبينه عداوة ولا رابطة، وهذا ليس له سبب إلا خبث النفس ورداءة الطبع، وهذا معالجته شديدة، لأنه ليس له سبب عارض، فيعمل على إزالته، بل سببه خبث الجبلة، فيعسر إزالته، فهذه أسباب الحسد.

▲ 6- فصل [في سبب كثرة الحسد]

واعلم: أنما يكثر الحسد بين أقوام تكثر بينهم الأسباب التي ذكرناها، ويقع ذلك غالباً بين الأقران، والأمثال، والإخوة، وبنى العم، لأن سبب التحاسد توارد الأغراض على مقاصد يحصل فيها، فيثور التنافر والتباغض. ولذلك ترى العالم يحسد العالم دون العابد، والعابد يحسد العابد دون العالم، والتاجر يحسد التاجر، والإسكاف يحسد الإسكاف، ولا يحسد البزاز إلا أن يكون سبب آخر، لأن مقصد كل واحد من هؤلاء غير مقصد الآخر. فأصل العداوة التزاحم على غرض واحد، والغرض الواحد لا يجمع متباعين، إذ لا رابطة بين شخصين في بلدين، ولا يكون بينهما محاسدة إلا من اشتد حرصه على الجاه، فإنه يحسد كل من في العالم ممن يساهمه في الخصلة التي يفاخر بها. ومنشأ جميع ذلك حب الدنيا، فإن الدنيا هي التي تضيق على المتزاحمين، وأما الآخرة، فلا ضيق فيها، فإن من أحب معرفة الله تعالى، وملائكته، وأنبياءه، وملوكوت أرضه وسماؤه، لم يحسد غيره إذا عرف ذلك، لأن المعرفة لا تضيق على العارفين، بل المعلوم الواحد يعرفه ألف ألف عالم، ويفرح بمعرفة غيره، فلذلك لا يكون بين علماء الدين محاسدة، لأن مقصودهم معرفة الله سبحانه، وهو بحر واسع لا ضيق فيه، وغرضهم المنزلة عند الله، ولا ضيق فيما عند

الله، لأن أجل ما عند الله من النعيم لذة لقائه، وليس فيه ممانعة ولا مزاحمة. ولا يضيق بعض الناظرين على بعض، بل يزيد الأنس بكثرتهم، إلا أنه إذا قصد العلماء بالعلم المال والجاه تحاسدوا. والفرق بين العلم والمال، أن المال لا يحل في يد ما لم يرتحل عن يد أخرى، والعلم مستقر في قلب العلم، ويحل في قلب غيره بتعليمه من غير أن يرتحل عن قلبه، ولا نهاية له، فمن عود نفسه الفكر في جلال الله وعظمته وملكه، وصار ذلك عنده أذ من كل نعيم، لأنه لم يكن ممنوعاً عنه ولا مزاحماً فيه، فلا يكون في قلبه حسد لأحد من الخلق، لأن غيره لو عرف مثل معرفته لم ينقص من لذته، فقد عرفت أنه لا حسد إلا في المتوارد على مقصود يضيق عن الوفاء بالكل. ولهذا لا ترى الناس يتزاحمون على النظر إلى زينة السماء، لأنها واسعة الأقطار، وافية بجميع الأبصار، فعليك إن كنت شقيقاً على نفسك أن تطلب نعيماً لا زحمة فيه، ولذة لا تتكدر، ولا يوجد ذلك في الدنيا إلا في معرفة الله تعالى وعجائب ملكوته، ولا ينال ذلك في المعرفة أيضاً، فإن كنت لا تشاق إلي معرفة الله سبحانه، ولم تجد لذتها، وضعفت فيها رغبتك، فليست برجل، إنما هذا شأن الرجال، لأن الشوق بعد الذوق، ومن لم يذق لم يعرف، ومن لم يعرف لم يشفق، ومن لم يشفق لم يطلب، ومن لم يطلب لم يدرك، ومن لم يدرك بقى من المحرومين. واعلم: أن الحسد من الأمراض العظيمة للقلوب، ولا تداوى أمراض القلوب إلا بالعلم والعمل، والعلم النافع لمرض الحسد هو أن تعرف حقيقة أن الحسد ضرر عليك في الدين والدنيا، وأنه لا يضر المحسود في الدين ولا في الدنيا، بل ينتفع به، والنعمة لا تزول عن المحسود بحسدك، ولو لم تكن تؤمن بالبعث لكان مقتضى الفطنة إن كنت عاقلاً أن تحذر من الحسد، لما فيه من ألم القلب مع عدم النفع، فكيف وأنت تعلم ما فيه من العذاب

في الآخرة. وبيان قولنا: أن المحسود لا ضرر عليه في الدين ولا في الدنيا، بل ينتفع بحسدك في الدين والدنيا، لأن ما قدره الله من نعمة لا بد أن تدوم إلى أجله الذي قدره، ولا ضرر عليه في الآخرة، لأنه لا يَأْثَمُ هو بذلك، بل ينتفع به، لأنه مظلوم من جهتك. لا سيما إذا أخرجت الحسد إلى القول والفعل وأما منفعته في الدنيا، فهو من أهم أغراض الخلق غم الأعداء، ولا عذاب أعظم مما أنت فيه من الحسد. فإذا تأملت ما ذكرنا، علمت أنك عدو لنفسك، وهو صديق لعدوك، فما مثلك إلا كمثل من يرمى حجراً عدوه ليصيب مقتله فلا يصيبه، ويرجع الحجر على حدقته اليمنى فيقلعها، فيزيد غضبه، فيعود ويرميه بحجر أشد من الأول، فيرجع الحجر على عينه الأخرى فيعميها، فيزداد غيظه، فيرميه الثالثة، فيعود الحجر على رأسه فيشدخه، وعدوه سالم يضحك منه، فهذه الأدوية العلمية، فإذا تفكر الإنسان فيها، أهدمت نار الحسد في قلبه. وأما العمل النافع فيه، فهو أن يتكلف نقيض ما يأمر به الحسد فإذا بعثه على الحقد والقدر في المحسود، كلف نفسه المدح له، والثناء عليه، وإن حمله الكبر، ألزم نفسه التواضع له، وإن بعثه على كف الأنعام عنه، ألزم نفسه زيادة في الإنعام. وقد كان جماعة من السلف إذا بلغهم أن شخصاً اغتابهم، أهدوا إليه هدية. فهذه أدوية نافعة للحسد جداً، إلا أنها مرة، وربما يسهل شربها أن يعلم أنه إذا كلن لا يكون كل ما تريد، فأرد ما يكون، وهذا هو الدواء الكلى، والله أعلم.

▲ 7 - باب في ذم الدنيا

الآيات الواردة في القرآن العزيز بعيب الدنيا، والتزهيد فيها، وضرب الأمثال لها كثيرة كقوله تعالى: [{ زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب* قل أؤنثكم بخير من ذلكم } \[آل عمران: 14-15\]](#)، وقوله: [{ وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور } \[آل عمران: 185\]](#)، وقوله: [{ إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء } الآية \[يونس: 24\]](#)، وقوله: [{ اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة } \[الحديد: 20\]](#)، وقوله: [{ وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين } \[الزخرف: 35\]](#)، وقوله: [{ فأعرض عن من تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا* ذلك مبلغهم من العلم } \[النجم: 29-30\]](#). وأما الأحاديث، ففي "الصحيحين" من رواية المستور بن شداد، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "ما الدنيا في الآخرة إلا كمثل ما يجعل أحدكم أصبعه في اليم، فلينظر بم ترجع؟" وفي حديث آخر: الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر" رواه مسلم. وفي حديث آخر: "لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافراً شربة ماء". رواه الترمذي وصححه. وفي حديث آخر: "الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ما كان لله منها"

وروى أبو موسى، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: "من أحب دنياه، أضر بأخرته، ومن أحب آخرته أضر بدنياه، فأثروا ما بقى على ما يفنى" ((رجالته ثقات لكنه منقطع أخرجه أحمد وابن حبان والحاكم.)) وكتب الحسن إلى عمر بن عبد العزيز في ذم الدنيا كتاباً طويلاً فيه: أما بعد فإن الدنيا دار ظعن ليست بدار مقام، وإنما أنزل إليها آدم عقوبة، فأحذرهما يا أمير المؤمنين، فإن الزاد منها تركها، والغنى فيها فقرها، تذل من أعزها، وتفقر من جمعها، كالسم يأكله من لا يعرفها وهو حتفه، فأحذر هذه الدار الغرورة الخيالة الخادعة، وكن أثر ما تكون فيها، أحذر ما تكون لها، سرورها مشوب بالحزن، وصفوها مشوب بالكدر، فلو كان الخالق لم يخبر عنه خبراً، ولم يضرب له مثلاً لكانت قد أيقظت النائم، ونهت الغافل، فكيف وقد جاء من الله عز وجل وعنه زاجر، وفيها واعظ، فما لها عند الله سبحانه قدر ولا وزن، وما نظر إليها منذ خلقها.

ولقد عرضت على نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم مفاتيحها وخزائنها، لا ينقصها عند الله جناح بعوضة، فأبى أن يقبلها، وكره أن يحب ما أبغض خالقه، أو يرفع ما وضع مليكه،

زواها الله عن الصالحين اختياراً، وبسطها لإعدائه اغتراراً، أفيظن المغرور بها المقتدر عليها أنه أكرم بها؟ ونسى ما صنع الله بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم حين شد على بطنه الحجر، والله ما أحد من الناس بسط له في الدنيا، فلم يخف أن يكون قد مكر به، إلا كان قد نقص عقله، وعجز رأيه وما أمسك عن عبد فلم يظن أنه قد خير له فيها، إلا كان قد نقص عقله وعجز رأيه.

وقال مالك بن دينار: اتقوا السحارة، فإنها تسحر قلوب العلماء، يعنى الدنيا. ومن أمثلة الدنيا: قال يونس بن عبيد: شبهت الدنيا كرجل نائم، فرأى في منامه ما يكره وما يحب، فبينما هو كذلك انتبه.

ومثل هذا قولهم: الناس نيام، فإذا ماتوا انتبهوا. والمعنى انهم ينتبهون بالموت وليس في أيديهم شيء مما ركنوا إليه وفرحوا به. قيل: إن عيسى عليه السلام رأى الدنيا في صورة عجوز هتماء (8) عليها من كل زينة. فقال لها: كم تزوجت؟ قالت: لا أحصيهم. قال: فكلهم مات عنك أو كلهم طلقك؟ قالت: بل كلهم قتل، فقال عيسى عليه السلام: بؤساً لأزواجك الباقيات، كيف لا يعتبرون بأزواجك الماضين، كيف تهلكينهم واحداً بعد واحد، ولا يكونون منك على حذر. وروى ابن عباس رضى الله عنه قال: يؤتى بالدنيا يوم القيامة في صورة عجوز شمطاء (9) زرقاء أنيابها يادية، مشوه خلقها، فتشرف على الخلق، فيقال: هل تعرفون هذه؟ فيقولون نعوذ بالله من معرفة هذه. فيقال: هذه الدنيا التي تشاجرتم عليها وبها تقاطعتم الأرحام، وبها تحاسدتم وتباغضتم واغتررتم، ثم تقذف في جهنم، فتنادى: يا رب أين أتباعي وأشياعي؟ فيقول: ألحقوا بها أتباعها وأشياعها. وعن أبي العلاء، قال: رأيت في النوم عجوزاً كبيرة عليها من كل زينة، والناس عكوف عليها متعجبون، ينظرون إليها، فقلت: أعود بالله من شرك. قالت: إن أحببت أن تعاذ من شري فأبغض الدرهم.

وقال بعضهم: رأيت الدنيا في النوم عجوزاً مشوهة الخلقة حذاء.

مثال آخر: واعلم أن أحوالك ثلاث:

حال لم تكن فيها شيئاً، وهى قبل أن توجد.

وحال أخرى، وهى من ساعة موتك إلى ما لا نهاية له في البقاء السرمدى، فإن لنفسك وجوداً بعد خروجها من بدنك، إما في الجنة أو النار، وهو الخلود الدائم.

وبين هاتين الحالتين حالة متوسطة، وهى أيام حياتك في الدنيا، فانظر إلى مقدار ذلك، وأنسبه إلى الحالتين، تعلم أنه أقل من طرفه عين في مقدار عمر الدنيا. ومن رأى الدنيا بهذه العين لم يركن لها، ولم يبال كيف انقضت أيامه في ضرر وضيق، أو سعة ورفاهية، ولهذا لم يضع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لينة على لينة، ولا قصبة على قصبة وقال: "مالي وللدنيا؟ إنما مثلى ومثل الدنيا كراكب قال (10) ((من القيلولة، وهى النوم في الظهيرة.)) "تحت الشجرة، ثم راح وتركها".

وقال عيس عليه السلام الدنيا قنطرة فاعبروها ولا تعمروها. هذا مثل واضح، فإن الحياة الدنيا معبر إلى الآخرة، والمهد هو الركن الأول على أول القنطرة، والحد هو الركن الثاني على آخر القنطرة. ومن الناس من قطع نصف القنطرة، ومن الناس من قطع ثلثها، ومنهم من لم يبق له إلا خطوة واحدة وهو غافل عنها، وكيفما كان فلا بد من العبور، فمن وقف بينى على القنطرة ويزينها وهو يستحث للعبور عليها، فهو في غاية الجهل والحمق.

وقيل: مثال طالب الدنيا، مثل شارب ماء البحر كلما ازداد شرباً ازداد عطشاً حتى يقتله.

وكان بعض السلف يقول لأصحابه: انطلقوا حتى أريكم الدنيا فيذهب بهم إلى مزبلة فيقول: انظروا إلى ثمارهم ودجاجهم وعسلهم وسمنهم.

مثال آخر: روى عن الحسن قال: بلغني عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: "إنما مثلى ومثلكم ومثل الدنيا كمثل قوم سلكوا مفازة غرباء، حتى إذ لم يدوروا ما سلكوا منها أكثر ما بقى، أنفذوا الزاد واخسروا الظهر، وابقوا بين ظاهرائي المفازة، لا زاد ولا حمولة، فأيقنوا بالهلكة، فبينما هم كذلك، إذ طلع عليهم رجل في حلة يقطر رأسه، فقالوا: إن هذا قريب عهد بريف، وما جاء هذا إلا من قريب، فلما انتهى إليهم قال: يا هؤلاء، علام أنتم؟ قالوا: على ما ترى. قال: عهدكم وموآثيقكم بالله. قال: فأعطوه عهدكم وموآثيقكم بالله، ثم قال: يا هؤلاء، الرحيل. قالوا: إلى أين؟ قال: إلى ماء ليس كمائكم، وإلى رياض ليست كرياضكم، فقال أكثر القوم: والله ما وجدنا هذا حتى ظننا أن لن نجد، وما نصنع بعيش خير من هذا؟ وقالت طائفة قليلة: ألم تعطوا هذا الرجل عهدكم وموآثيقكم بالله لا تعصونه؟ وقد صدقكم في أول حديثه، فوالله ليصدقنكم في آخره. قال: فراح فيمن اتبعه، وتخلف بقيتهم فنزل عدو، فأصبحوا بين أسير وقتيل (11) وفى "الصحيحين" من حديث أبى موسى رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "إنما مثلى ومثل ما بعثني الله به، كمثل رجل أتى قومه فقال: يا قوم، إني رأيت الجيش بعينى، وأنا النذير العريان، فالنجا، فأطاعه طائفة من قومه، فادلجوا وانطلقوا على مهلهم، فنجوا، وكذبت طائفة منهم، فأصبحوا مكانهم. فصبحهم الجيش في مكانهم، فأهلكهم واجتاحهم، فذلك مثل من أطاعني واتبع ما جئت به، ومثل من عصاني وكذب بما جئت به من حق".

▲ 8- فصل في بيان حقيقة الدنيا والمذموم منها والمحمود

قد سمع خلق كثير ذم الدنيا مطلقاً، فاعتقدوا أن الإشارة إلى هذه الموجودات التي خلقت للمنافع، فأعرضوا عما يصلحهم من المطاعم والمشارب. وقد وضع الله في الطباع توقان النفس إلى ما يصلحها، فكلما تآقت منعوها، ظناً منهم أن هذا هو الزهد المراد، وجهلاً بحقوق النفس، وعلى هذا أكثر المتزهدين، وإنما فعلوا ذلك لقلّة العلم، ونحن نصدع بالحق من غير محاباة فنقول: اعلم: أن الدنيا عبارة عن أعيان موجودة للإنسان، فيها حظ، وهى الأرض وما عليها، فإن الأرض مسكن الأدنى، وما عليها ملبس ومطعم ومشرب ومنكح، وكل ذلك علف لراحة بدنه السائر إلى الله عز وجل، فإنه لا يبقى إلا بهذه المصالح، كما لا تبقى الناقة في طريق الحج إلا بما يصلحها، فمن تناول منها ما يصلح على الوجه المأمور به مدح، ومن أخذ منها فوق الحاجة يكتنف الشره وقع في الذم، فإنه ليس للشره في تناول الدنيا وجه، لأنه يخرج عن النفع إلى الأذى، ويشغل عن طلب الآخرة فيفوت المقصود، ويصير بمثابة من أقبل يعلف الناقة، ويرد لها الماء، ويغير عليها ألوان الثياب، وينسى أن الرفقة قد سارت، فإنه يبقى في البادية فريسة للسباع هو وناقته.

ولا وجه أيضاً للتقصير في تناول الحاجة، لأن الناقة لا تقوى على السير إلا بتناول ما يصلحها، فالطريق السليم هي الوسطى، وهى أن يؤخذ من الدنيا قدر ما يحتاج إليه من الزاد للسلوك، وإن كان مشتهى، فإن إعطاء النفس ما تشتهيه عون لها وقضاء لحقها. وقد كان سفيان الثوري يأكل في أوقات من طيب الطعام، ويحمل معه في السفر الفالوج وكان إبراهيم بن أدهم يأكل من الطيبات في بعض الأوقات، فيقول: إذا وجدنا أكلنا أكل الرجال، وإذا فقدنا صبرنا صبر الرجال. ولينظر في سيرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وصحابته، فإنهم ما كان لهم إفراط في تناول الدنيا، ولا تفريط في حقوق النفس. وينبغى أن يتلمح حظ النفس في المشتهى، فإن كان في حفظها وحفظها وما يقيمها.

وبصلحها وينشطها للخير، فلا يمنعها منه، وإن كان حظها مجرد شهوة ليست متعلقة بمصالحها المذكورة فذلك حظ مذموم، والزهد فيه يكون.

▲ 9- باب في ذم البخل والحرص والطمع

وذم المال ومدحه ومدح القناعة والسخاء، ونحو ذلك اعلم: أن المال لا يذم لذاته بل يقع الذم لمعني من الآدمي، وذلك المعني إما شدة حرصه أو تناوله من غير حلة، أو حبسه عن حقه، أو إخراجه في غير وجهه، أو المفاخرة به، ولهذا قال الله تعالى: **{إنما أموالكم وأولادكم فتنة}** [الأنفال: 28]. وفي "سنن الترمذي" عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: **"ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم، بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه"**. وقد كان السلف يخافون من فتنة المال. وكان عمر رضى الله عنه إذا رأى الفتوح يبكى ويقول: ما حبس الله هذا عن نبيه صلى الله عليه وآله وسلم وعن أبي بكر لشر أرادته الله بهما، وأعطاه عمر إرادة الخير له. وقال يحيى بن معاذ: الدرهم عقرب، فإن لم تحسن رقيته فلا تأخذه، فإنه إن لدغك قتلك سمه. قيل: ما رقيته؟ قال: أخذه من حله ووضع في حقه. وقال: مصيبتان للعبد في ماله عند موته لا تسمع الخلائق بمثلها، قيل: ما هما؟ قال: يؤخذ منه كله، ويسأل عنه كله.

▲ 10- بيان في مدح المال

قد بينا أن المال لا يذم لذاته بل ينبغي أن يمدح، لأنه سبب للتوصل إلى مصالح الدين والدنيا، وقد سماه الله تعالى خيراً، وهو قوام الآدمي. قال الله تعالى في أول سورة النساء: **{ولا تؤتوا السفهاء}** (12) ((السفه: ضد الحلم، وأصله الخفة والحركة، والسفيه: الجاهل، والمراد هنا: الجهالة بموضع النفقة من الرجال)) "أموالكم التي جعل الله لكم قياماً" [النساء: 5]. وقال سعيد بن المسيب رحمه الله: لا خير فيمن لا يريد جمع المال من حله، يكف به وجهه عن الناس، ويصل به رحمه، ويعطى منه حقه. وقال أبو إسحاق السبيعي: كانوا يرون السعة عوناً على الدين. وقال سفيان: المال في زماننا هذا سلاح المؤمنين. وحاصل الأمر: أن المال مثل حبة فيها سم وترياق، فترياقه فوائده، وغوائله سمه، فمن عرف فوائده وغوائله، أمكنه أن يحترز من شره، ويستدر من خيره.

أما فوائده، فتنقسم إلى دنيوية ودينية:

أما الدنيوية، فالخلق يعرفونها، ولذلك تهالكوا في طلبها.

وأما الدينية، فتنحصر في ثلاثة أنواع:

أحدها: أن ينفقه على نفسه، إما في عبادة، كالحج والجهاد، وإما في الاستعانة على العبادة، كالمطعم والملبس والمسكن وغيرها من ضرورات المعيشة، فإن هذه الحاجات إذا لم تيسر، لم يتفرغ القلب للدين والعبادة، وما لا يتوصل إلى العبادة إلا به، فهو عبادة، فأخذ الكفاية من الدنيا للاستعانة على الدين من الفوائد الدينية، ولا يدخل في هذا التنعم والزيادة على الحاجة، فإن ذلك من حظوظ الدنيا.

النوع الثاني: ما يصرفه إلى الناس، وهو أربعة أقسام

أحدها: الصدقة، وفضائلها كثيرة ومشهورة.

القسم الثاني: المروءة، ونعني بها صرف المال إلى الأغنياء والأشراف في ضيافة وهدية وإعانة ونحو ذلك، وهذا من الفوائد الدينية، إذ به يكتسب العبد الإخوان والأصدقاء.

القسم الثالث: وقاية العرض نحو بذل المال لدفع هجو الشعراء، وثلب (13) السفهاء، وقطع ألسنتهم، وكف شرهم، فهو من الفوائد الدينية، فإن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: "وما وقى الرجل به عرضه فهو صدقة وهذا لأنه يمنع المغتاب من معصية الغيبة، ويحرز مما يثير كلامه من العداوة التي تحمل في الانتقام على مجاوزة حدود الشريعة.

لقسم الرابع: ما يعطيه أجراً على الاستخدام، فإن الأعمال التي يحتاج إليها الإنسان لمهنة أسبابها كثيرة، ولو تولاه بنفسه ضاعت أوقاته، وتعذر عليه سلوك الآخرة بالفكر والذكر اللذين هما أعلى مقامات السالك، ومن لا مال له يفتقر إلى أن يتولى خدمة نفسه بنفسه، فكل ما يتصور أن يقوم به غيرك، ويحصل بذلك غرضك، فإن تشاغلك به عين، لأن احتياجك إلى التشاغل بما لا يقوم به غيرك من العلم والعمل والذكر والفكر أشد.

النوع الثالث: ما لا يصرفه الإنسان إلى معين، لكن يحصل عليه به خيراً عاماً، كبناء المساجد، والقناطر، والوقوف المؤبدة، فهذه جملة فوائد المال في الدين، سوى ما يتعلق بالحظوظ العاجلة، من الإخلاص من ذل السؤال، وحقارة الفقر، والعز بين الخلق، والكرامة في القلوب، والوقار

وأما غوائل المال وآفاته، فتنقسم أيضاً إلى دينية وديوية:

أما الدينية فتلاث فئات

الأولى: أنه يجر إلى المعاصي غالباً، لأنه من استشعر القدرة على المعصية، انبعثت داعيته إليها.

والمال نوع من القدرة يحرك داعيته إلى المعاصي، ومتى يئس الإنسان من المعصية، لم تتحرك داعيته إليها.

ومن العصمة أن لا تجد، فصاحب القدرة إن اقتحم ما يشتهي هلك، وإن صبر لقي شدة في معاناة الصبر مع القدرة، وفتنة السراء أعظم من فتنة الضراء.

الثانية: أنه يحرك إلى التمتع في المباحات، حتى تصير له عادة وإلفاً، فلا يصبر عنها، وربما لم يقدر على استدامتها إلا بكسب فيه شبهة، فيقتحم الشبهات، ويترقى إلى آفات من المداهنة والنفاق، لأن من كثر ماله خالط الناس، وإذا خالطهم لم يسلم من نفاق وعداوة وحسد وغيبة، وكل ذلك من الحاجة إلى إصلاح المال.

الثالثة: وهي التي لا ينفك عنها أحد، وهو أن يلهيه ماله عن ذكر الله تعالى، وهذا هو الداء العضال، فإن أصل العبادات ذكر الله تعالى، والتفكير في جلاله وعظمته، وذلك يستدعى قلباً فارغاً. وصاحب الضيعة يمسي ويصبح متفكراً في خصومة الفلاحين ومحاسبتهم وخيانتهم، ويتفكر في منازعة شركائه في الحدود والماء، وأعوان السلطان في الخراج والأجراء على التقصير في العمارة ونحو ذلك. وصاحب التجارة يمسي ويصبح متفكراً في خيانة شريكه، وتقصيره في العمل، وتضييعه المال. وكذا سائر أصناف المال، حتى صاحب المال المجموع المكنوز يفكر في كيفية حفظه، وفي الخوف عليه. ومن له قوت يوم بيوم فهو في سلامة من جميع ذلك، وهذا سوى ما يقاسيه أرباب الأموال في الدنيا، من الخوف والحزن والهم والغم والتعب. فإذا ترباق المال أخذ القوت منه، وصرف الباقي إلى الخيرات، وما عدا ذلك سموم وآفات.

▲ 11- بيان ذم الحرص والطمع ومدح القناعة واليأس

واعلم: أن الفقر محمود، ولكن ينبغي للفقير أن يكون قانعاً، منقطع الطمع عن الخلق، غير ملتفت إلى ما في أيديهم، ولا حريص على اكتساب المال كيف كان، ولا يمكنه ذلك إلا بأن يقنع بقدر الضرورة من المطعم والملبس. وقد روى في "صحيح مسلم" عن عمرو بن العاص رضى الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: "قد أفلح من أسلم، ورزق كفافاً، وقنعه الله بما آتاه". وقال سليمان بن داود عليهما السلام: قد جربنا العيش كله، لينه من شديده، فوجدناه يكفى منه أدناه. وفى حديث جابر رضى الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: "القناعة مال لا ينفذ". وقال أبو حازم: ثلاث من كن فيه كمل عقله: من عرف نفسه، وحفظ لسانه، وقنع بما رزقه الله عز وجل. وقرأ بعض الحكماء: أنت أخو العز ما التحفت بالقناعة. أما الحرص، فقد نهى عنه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: "أيها الناس، أجملوا في الطلب، فإنه ليس للعبد إلا ما كتب له" ونهى عن الطمع فقال: "اجمع اليأس مما في أيدي الناس" (وقال بعضهم: لو قيل للطمع: من أبوك؟ قال: الشك في المقدور، ولو قيل له: ما حرفتك؟ قال: اكتساب الذل، ولو قيل له: ما غايتك؟ قال: الحرمان. وقيل: الطمع يذل الأمير، واليأس يعز الفقير.

▲ 12- بيان علاج الحرص والطمع والدواء الذي تكتسب به صفة القناعة

اعلم: أن هذا الدواء مركب من ثلاثة أركان:

الصبر، والعلم، والعمل، ومجموع ذلك خمسة أمور:

الأول: الاقتصاد في المعيشة، والرفق في الإنفاق، فمن أراد اقناعاً فينبغي أن يسد عن نفسه أبواب الخروج ما أمكنه، وبرد نفسه إلى ما لا بد منه، فيقنع بأي طعام كان، وقليل من الإدام، وثوب واحد، ويوطن نفسه على ذلك، وإن كان له عيال، فيرد كل واحد إلى هذا القدر. قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "ما عال من اقتصد (14) وفى حديث آخر: "التدبير نصف العيش وفى حديث آخر "ثلاث منجيات: خشية الله تعالى في السر والعلانية، والقصد في الغنى والفقير، والعدل في الرضى والغضب".

الثاني: إذا تيسر له في الحال ما يكفيه، فلا يكون شديد الاضطراب لأجل المستقبل وبعينه على ذلك قصر الأمل، واليقين بأن رزقه لا بد أن يأتيه، وليعلم أن الشيطان يعده الفقر. وعن ابن مسعود رضى الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: "إن روح القدس نفث في روعى، أنه ليس من نفس تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب، ولا يحملنكم استبطاء الرزق أن تطلبوه بمعاصي الله عز وجل، فإنه لا يدرك عند الله إلا بطاعته".

وإذا انسد عنه باب كان ينتظر الرزق منه، فلا ينبغي أن يضطرب قلبه، فإن في الحديث: "أبى الله أن يرزق عبده المؤمن إلا من حيث لا يحتسب" ((أخرجه الديلمى من حديث أبى هريرة من رواية عمر بن راشد، وهو ضعيف جداً، وقال البيهقى: ضعيف بالمرّة، وأورده ابن لجوزي في "الموضوعات" ز ورواه ابن حبان في "الضعفاء" من حديث على بإسناد واه.))

الثالث: أن يعرف ما في القناعة من عز الاستغناء، وما في الطمع والحرص من الذل. وليس في القناعة إلا الصبر عن المشتبهات والفضول، مع ما يحصل له من ثواب الآخرة، ومن لم يؤثر عز نفسه عن شهوته، فهو ركيك العقل، ناقص الإيمان.

الرابع: أن يكثر تفكره في تنعم اليهود والنصارى وأراذل الناس والحمقى منهم، ثم ينظر إلى أحوال الأنبياء والأولياء والصالحين، ويسمع أحاديثهم، ويطالع أحوالهم، ويخبر عقله بين مشابهة أراذل العالمين، أو صفوة الخلق عند الله تعالى، حتى يهون عليه الصبر على

القليل والقناعة باليسير، وأنه إن تنعم بالأكل فالهزيمة أكثر أكلاً منه، وإن تنعم بالوطء فالعصفور أكثر سفاداً (15) منه.

الخامس: أن يفهم ما في جمع المال من الخطر، كما ذكرنا في آفات المال، وينظر إلى ثواب الفقر، ويتم ذلك بأن ينظر أبداً من دونه في الدنيا، وإلى من فوقه في الدين، كما جاء في الحديث من رواية مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: "انظروا إلى من هو أسفل منكم، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فإنه أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم". عماد الأمر: الصبر وقصر الأمل، وأن يعلم أن غاية صبره في الدنيا أيام قلائل لتمتع دائم، فيكون كالمريض الذي يصبر على مرارة الدواء لما يرجو من الشفاء.

▲ 13. فصل [في لزوم القناعة لمن فقد المال]

ينبغي لمن فقد المال أن يستعمل القناعة كما ذكرنا، ولمن وجده أن يستعمل السخاء والإيثار واصطناع المعروف، فإن السخاء أخلاق الأنبياء، وهو أصل من أصول النجاة. وعن جابر رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: "قال جبريل عليه السلام: قال الله عز وجل: الإسلام دين ارتضيته لنفسي، ولن يصلحه إلا السخاء وحسن الخلق، فأكرموا بهما ما صحبتموه وفى حديث آخر: عن ابن عباس رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: "تجافوا عن ذنوب السخي، فإن الله أخذ بيده كلما عثر وفى حديث آخر: "الجنة دار الأسخياء، وما جيل ولى الله إلا على السخاء وعن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "إن بدلاء أمتي لم يدخلوا الجنة بعبادة ولا بصيام، ولكن دخلوها بسخاء النفس، وسلامة الصدر، والنصح للمسلمين وفى حديث آخر: "عليكم باصطناع المعروف، فإنه يمنع مصارع السوء". وقال ابن السماك: عجت ممن يشتري المماليك بماله، كيف لا يشتري الأحرار بمعروفه؟!

▲ ومن حكايات الأسخياء

قد صح عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه كان أجود بالخير من الريح المرسلة، وأنه ما سئل شيئاً قط فقال: لا وأن رجلاً سأله، فأعطاه غنماً بين جبلين، فأتى الرجل قومه، فقال: يا قوم: أسلموا، فإن محمداً يعطى عطاء من لا يخشى الفقر. وقيل: كان لعثمان عليّ طلحة رضى الله عنهما خمسون ألف درهم، فخرج إلى المسجد، فقال له طلحة: قد تهباً مالك فاقبضه، فقال: هو لك يا أبا محمد معونة عليّ مروءتك. وجاء أعرابي إلى طلحة، فسأله، وتعرف إليه برحم، فقال: إن هذه الرحم ما سألتني بها أحد قبلك، فأعطاه ثلاثمائة ألف درهم. وقال عروة: رأيت عائشة رضى الله عنها تقسم سبعين ألفاً، وهى ترقع درعها. وروى أنها قسمت في يوم ثمانين ألف بين الناس، فلما أمست قالت: يا جارية عليّ فطوري، فجاءتها بخبز وزيت: فقالت لها أم درة: أما استطعت فيما قسمت اليوم أن تشتري لنا بدرهم لحماً نفطر عليه؟! فقالت: لو ذكرتني لفعلت. واشتري عبد الله بن عامر من خالد بن عقبة داره التي في السوق بتسعين ألف درهم، فلما كان الليل، سمع بكاء أهل خالد. فقال لأهله: ما لهؤلاء؟ قالوا: يبكون على دراهم، قال: يا غلام: اتهم، فأعلمهم أن الدار والمال لهم جميعاً.

وبعث رجل إلى عبد الله أنه قد وصف لى لبن البقر، فابعث لى بقرة أشرب من لبنها. فبعث إليه بسبعمئة بقرة ورعاتها، وقال: القرية التي كانت ترعى فيها لك.

ودخل على بن الحسن على محمد بن أسامة بن زيد في مرضه، فجعل يبكى: فقال: ما شأنك؟ قال: على دين، قال: كم هو؟ قال: خمسة عشر ألف دينار، أو بضعة عشر ألف دينار. قال: فهي على. وجاء رجل إلى معن، فسأله، فقال: يا غلام: ناقتي الفلانية وألف دينار، فدفعها إليه وهو لا يعرفه. وبلغنا عن معن أن شاعر أقام ببابه مدة فلم يتهباً له

لقاؤه، فقال لبعض خدمه: إذا دخل الأمير البستان فعرفني، قال: فلما دخل عرفه، فكتب الشاعر بيتاً على خشبة، وألقاها في الماء الذي يدخل البستان، فلما بصر معن بالخشبة، أخذها، فإذا فيها مكتوب:

أيا جود معن ناج معناً بحاجتي فما لى إلى معن سواك شفيح

فقال من صاحب هذه؟ فدعا الرجل، فقال له: كيف قلت؟ فقال له بعشر بدر (16)، فأخذها ووضع الأمير الخشبة تحت بساطة فلما كان اليوم الثاني أخرجها من تحت البساط، وقرأ ما فيها ودعا الرجل، فدفع إليه مائة ألف درهم أخرى، فلما أخذها الرجل، خاف أن يعود فيستعيدها منه، فخرج، فما كان اليوم الثالث، قرأ ما فيها، فدعا الرجل فطلب فلم يوجد. فقال معن: حق على أن أعطيه حتى لا يبقى في بيت مالي درهم ولا دينار.

ومرض قيس بن سعد بن عبادة، فاستبطأ إخوانه، فقيل له، إنهم يستحيون مما لك عليهم من الدين. فقال: أحزى الله مالا يمنع الإخوان من الزيارة، ثم أمر منادياً، ينادى: من كان عليه لقيس حق، فهو منه في حل، قال: فانكسرت درجته بالعشي لكثرة من عاده.

وقام رجل إلى سعيد بن العاص يسأله، فأمر له بمائة ألف درهم، فبكى، فقال: سعيد: ما يبكيك؟ قال: أبكى على الأرض أن تأكل مثلك، فأمر له بمائة ألف أخرى.

▲ 14- فصل في البخل ودمه

عن أبي سعيد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: " خصلتان لا تجتمعان في مؤمن: البخل وسوء الخلق".

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: " لا يجتمع الشح والإيمان في قلب عبد أبداً"

وفى أفراد مسلم، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه كان يقول: " اللهم إني أعوذ بك من الجبن والبخل". وروى جابر رضى الله عنه، قال: قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم لبني سلمة: " من سيدكم؟ قالوا: جد بن قيس على أننا نبخله، قال: وأي داء أدوأ من البخل؟ بل سيدكم بشر بن البراء بن معرور" وهي أصح ما من ذكر عمرو بن الجموح، وغلط بعض الرواة، فقال: البراء بن معرور، البراء مات قبل الهجرة. وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: " ثلاث مهلكات: شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه".

قال الخطابي: الشح في المنع أبلغ من البخل.

وقال سلمان: إذا مات السخي، قالت الأرض والحفظة: رب تجاوز عن عبدك في الدنيا بسخائه، وإذا مات البخيل قالت: اللهم احب هذا العبد عن الجنة، كما حب عبادك عما جعلت في يديه من الدنيا. وقال بعض الحكماء: من كان بخيلاً ورث ماله عدوه. ودم أعرابي قوماً فقال: يصومون عن المعروف ويفطرون على الفواحش.

▲ من حكايات البخلاء:

روى عن ابن عباس رضى الله عنه قال: كان الحاجب رجلاً من أجل العرب، وكان بخيلاً، وكان لا يوقد ناراً بليل كراهة أن يراها راء فينتفع بضوئها، فإذا احتاج إلى إيقادها فأوقد ثم بصر بمستضيئ بها أطفأها. وقيل: كان مروان بن أبي حفصة من أبخل الناس، فخرج يريد

المهدي، فقالت له امرأته: مالي عليك إن رجعت بالجائزة؟ قال: إن أعطيت مائة ألف درهم، أعطيتك درهماً، فأعطى ستين ألف درهم. فأعطاهم أربعة دنانير. وقيل: كان بعض البخلاء ميسراً كثيراً الأموال، وكان ينظر في دقائق الأشياء فاشترى شيئاً من الحوائج، ودعا حملاً وقال: بكم تحمل هذه الحوائج؟ قال: بحبة. قال: أبخس. قال ما أقل من حبة؟ لا أدري ما أقول. قال: نشترى بالحبة جزراً، فنجلس جميعاً فنأكله.

▲ 15- فصل في فضل الإيثار وبيان

اعلم أن السخاء والبخل درجات:

فأرفع درجات السخاء الإيثار، وهو أن تجود بالمال مع الحاجة إليه. وأشد درجات البخل، أن يبخل الإنسان على نفسه مع الحاجة، فكم من بخل يمسك المال، ويمرض فلا يتداوى، ويشتهي الشهوة فيمنعه منها البخل. فكم بين من يبخل على نفسه مع الحاجة، وبين ما يؤثر على نفسه مع الحاجة، فالأخلاق عطايا يضعها الله عز وجل حيث يشاء. وليس بعد الإيثار درجة في السخاء. وقد أثنى الله تعالى على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالإيثار، فقال: {ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة} [الحشر: 8] وكان سبب نزول هذه الآية قصة أبي طلحة، لما أثر ذلك الرجل المجهود بقوته وقوت صبيانه، وحكايته مشهورة.

واستشهد باليرموك عكرمة بن أبي جهل، وسهيل بن عمرو، والحارث بن هشام، وجماعة من بنى المغيرة، فأتوا بماءٍ وهم صرعى، فتدافعوه حتى ماتوا ولم يدقوه. أتى عكرمة بالماء فنظر إلى سهيل بن عمرو ينظر إليه، فقال: ابدأ بهذا، ونظر سهيل إلى الحارث ينظر إليه، فقال: ابدأ بهذا، وكل منهم يؤثر الآخر على نفسه بالشربة، فماتوا كلهم قبل أن يشربوا، فمر بهم خالد بن الوليد فقال: بنفسي أتم. وأهدى إلى الرجل من الصحابة رضى الله عنه رأس شاة، فقال: إن أخي أحوج إليه مني، فبعث به إلى الرجل، فبعث به ذلك إلى آخر، حتى تداولته سبع أبيات، فرجع إلى الأول. خرج عبد الله بن جعفر إلى ضيعة له، فنزل على نخل لقوم فيها غلام أسود يعمل فيها، إذ أتى الغلام بقوته، فدخل الحائط كلب، فدنا من الغلام فرمى إليه قرصاً فأكله، ثم رمى إليه قرصاً آخر فأكله، ثم رمى إليه ثالث فأكله، وعبد الله ينظر فقال: يا غلام! كم قوتك كل يوم؟ قال: ما رأيت، فلم أثرت به هذا الكلب؟ قال: ماهى بأرض كلاب، جاء من مسافة بعيدة جائعاً فكرهت رده، قال: فما أنت صانع؟ قال: أطوي يومي هذا، فقال عبد الله بن جعفر: ألام على السخاء وهذا أسخى مني، فاشترى الحائط وما فيه من الآلات،

واشترى الغلام وأعتقه ووهبه له. واجتمع جماعة من الفقراء في موضع لهم وبين أيديهم أرغفة معدودة لا تكفيهم فكسروا الرغفان، وأطفؤوا السراج، وجلسوا للأكل، فلما رفع الطعام، إذا هو بحاله، لم يأكل أحد منهم شيئاً إيثاراً لأصحابه.

▲ 16- فصل [في حد البخل والسخاء]

وقد تكلم الناس في حد البخل والسخاء، فذهب قوم إلى أن حد البخل منع الواجب، وأن من أدى ما يجب عليه، فليس ببخل، وهذا غير كاف، فإن من لم يسلم إلى عياله إلا القدر الذي يفرضه الحاكم، ثم يضايقهم في زيادة لقمة أو ثمرة فإنه معدود من البخلاء، فالصحيح أن البراءة من البخل تحصل بفعل الواجب في الشرع واللازم بطريق المروءة مع طيب القلب بالبذل. فأما الواجب بالشرع، فهو الزكاة، ونفقة العيال. وأما اللازم بطريق المروءة، فهو ترك المضايقة، والاستقصاء عن المحقرات فإن ذلك يستفتح، ويختلف ذلك باختلاف الأحوال والأشخاص، فقد يستقبح من الغنى ما لا يستقبح من الفقير، ويستقبح من الرجل المضايقة لأهله وأقاربه وجيرانه ما لا يستقبح من الأجانب، فالبخل الذي يمنع

مالا ينبغي أن يمنع، إما بحكم الشرع أو لازم المروءة. ومن قام بواجب الشرع، ولازم المروءة، فقد تبرأ من البخل، لكن لا يتصف بصفة الجود ما لم يبذل زيادة على ذلك. قال بعضهم: الجواد: هو الذي يعطى بلا من. وقيل: هو الذي يفرح بالإعطاء. فأما علاج البخل، فاعلم أن سبب البخل حب المال.

ولحب المال سببان:

أحدهما: حب الشهوات التي لا وصول إليها إلا بالمال مع طول الأمل، وإن كان قصير الأمل وله ولد، فإنه يقوم مقام طول الأمل.

الثاني: أن يحب عين المال، فمن الناس من معه ما يكفيه لبقية عمره لو اقتصر على ما جرت عادته به، ويفضل معه آلاف، ويكون شيخاً لا ولد له، ثم لا تسمح نفسه بإخراج الواجب عليه، ولا بصدقة تنفعه، ويعلم أنه إذا مات أخذه أعداؤه، أو ضاع إن كان مدفوناً، وهذا مرض لا يرجى علاجه.

ومثال ذلك رجل أحب شخصاً، فلما جاء رسوله، أحب الرسول ونسى محبوبه واشتغل بالرسول، فإن الدنيا رسول مبلغ إلى الحاجات، فيحب الدنانير لذاتها، وينسى الحاجات، وهذا غاية الضلال. واعلم: أن علاج كل علة بمضادة سببها. فيعالج حب الشهوات بالقناعة والصبر، وطول الأمل بكثرة ذكر الموت. ويعالج التفات القلب إلى الولد، بأن من خلقه معه رزقه، وكم ممن لم يرث شيئاً أحسن حالاً ممن ورث. فليحذر أن يترك لولده الخير، ويقدم على الله بشر، فإن ولده إن كان صالحاً فالله يتولاه، وإن فاسقاً فلا يترك ما يستعين به على المعاصي، وليردد على سمعه ما ذكرناه في ذم البخل ومدح السخاء. واعلم: أنه إذا كثرت المحبوبات في الدنيا، كثرت المصائب يفقدها، فمن عرف آفة المال لم يأنس به، ومن لم يأخذ منه إلا قدر حاجته، وأمسك ذلك لحاجته فليس ببخيل، والله أعلم.

كتاب ذم الجاه والرياء وعلاجهما

وروى عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: " **إن أخوف ما أخاف على أمتي الرياء والشهوة الخفية**". وهذه الشهوة الخفية يعجز عن الوقوف على غوائلها كبار العلماء، فضلاً عن عامة العباد، وإنما يبتلى بها العلماء والعباد المشمرون عن ساق الجد لسببها، فإنهم لما قهروا نفوسهم وقطموها عن الشهوات، وحملوها بالقهر على أسباب العبادات، لم تطمع في المعاصي الظاهرة، الواقعة على الجوارح، فاستراحت إلى التظاهر بالعلم والعمل، ووجدت مخلصاً من شدة المجاهدة في لذة القبول عند الخلق، ونظرهم إليها بعين الوفاق والتعظيم، فأصابته النفس في ذلك لذة عظيمة، فاحتقرت فيها ترك المعاصي، فأحدهم يظن أنه مخلص لله عز وجل، وقد أثبت في ديوان المنافقين، وهذه مكيدة عظيمة لا يسلم منها إلا المقربون.

ولذلك قيل: آخر ما يخرج من رؤوس الصديقين حب الرياسة، وإذا كان هو الداء الدفين، الذي هو أعظم شبكة للشياطين، وجب شرح القول في سببه، وحقيقته وأقسامه. اعلم: أن أصل الجاه هو حب انتشار الصيت والاشتهار، وذلك خطر عظيم، والسلامة في الخمول. وأهل الخير لم يقصدوا الشهرة، ولم يتعرضوا لها ولا لأسبابها، فإن وقعت من قبل الله تعالى، فروا عنها، وكانوا يؤثرون الخمول، كما روى عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه خرج من منزله، فتيبه جماعة، فالتفت إليهم وقال: علام تتبعونى؟ فوالله لو علمتم ما أغلق عليه بابي ما اتبعني منكم رجلان. وفي لفظ آخر أنه قال: ارجعوا، فإنه ذلة للتابع وفتنة للمتبع. وكان أبو العالية رحمه الله إذا جلس إليه أكثر من أربعة قام. وكان خالد بن معدان رحمه الله إذا عظمت حلقتة، قام وانصرف كراهة الشهرة. وقال الزهري

رحمه الله: ما رأينا الزهد في شيء أقل منه في الرياسة، نرى الرجل يزهد في المطعم والمشرب والمال، فإذا نوزع الرياسة، حامى عليها وعادى. قال رجل لبشر الحافي رحمه الله: أوصني، فقال: أحمّل ذكرك، وطيب مطعمك. وقال: لا يجد حلاوة الآخرة رجل يحب في الدنيا أن يعرفه الناس. وقد روى في "صحيح مسلم" أن عمر بن سعد انطلق إلى أبيه سعد وهو في غنم له خارجاً عن المدينة، فلما رآه قال: أعوذ بالله من شر هذا الراكب، فلما أتاه قال: يا ابت أنزلت في إبلك وغنمك وتركت الناس يتنازعون الملك بينهم؟ فضرب سعد في صدره وقال: اسكت، إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: "إن الله يحب العبد التقي الغنى الخفي".

وعن أبي أمامة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "إن أغبط أوليائي عندي لمؤمن خفيف الحاذ، ذو حظ من الصلاة، أحسن عبادة ربه، وأطاعه في السر، وكان غامضاً في الناس، لا يشار إليه بالأصابع، وكان رزقه كفافاً، فصبر على ذلك" ثم نقر بيده، فقال: "عجلت منيته، قلت بواكيه، قل ترائه" حديث حسن.

وكان ابن مسعود رضى الله عنه يوصى أصحابه، فيقول: كونوا ينابيع العلم، مصابيح الهدى، أحلاس البيوت، سرج الليل، جدد القلوب، خلجان الثياب، تعرفون في السماء، وتخفون على أهل الأرض. فإن قيل: هذا فيه فضيلة الخمول، وذم الشهرة وأي شهرة أكثر من شهرة الأنبياء، وأئمة العلماء. قلنا: المذموم طلب الإنسان الشهرة، وأما وجودها من جهة الله تعالى من غير طلب الإنسان فليس بمذموم، غير أن في وجودها فتنة على الضعفاء، فإن مثل الضعيف كالغريق القليل الصنعة في السباحة، إذا تعلق به أحد غرق وغرقه، فأما السابح النحرير، فإن تعلق الغرقى به سبب لنجاتهم وخلصهم.

▲ 1- فصل [في أن الجاه والمال هما ركنا الدنيا]

واعلم: أن الجاه والمال هما ركنا الدنيا، ومعنى المال ملك الأعيان المنتفع بها، ومعنى الجاه ملك القلوب المطلوب تعظيمها، وطاعتها، والتصرف فيها. فالجاه هو قيام المنزلة في قلوب الناس، وهو اعتقاد القلوب نعتاً من نعوت الكمال في هذا الشخص، إما من علم أو عبادة، أو نسب أو قوة، أو حسن صورة، أو غير ذلك مما يعتقدونه الناس كمالاً فيقدر ما يتعقدون له من ذلك، تدعّن قلوبهم لطاعته، ومدحه وخدمته، وتوفيره. فهذا يبين أن الجاه محبوب بالطبع وأنه أبلغ من حب المال، لأن المال لا يتعلق الغرض بعينه، بل لكونه وسيلة إلى المحبوبات، فاشترك الجاه والمال في السبب اقتضى الاشتراك في المحبة، والجاه في ذلك أرجح من المال. واعلم: أن من الجاه ما يحمد وما يذم، لأن من المعلوم أنه لا بد للإنسان من مال لضرورة المطعم والملبس ونحوهما، فكذلك لا بد له من جاه لضرورة المعيشة مع الخلق، لأن الإنسان لا يخلو من الحاجة إلى سلطان يحرسه، ورفيق يعينه، وخادم يخدمه، فحبه ذلك ليس بمذموم، لأن الجاه وسيلة إلى الأغراض، كالمال. والتحقيق في هذا أن لا يكون المال والجاه محبوبين لأعيانهما، ومتى طلب الإنسان قيام جاهه لأجل صفة هو متصف بها لغرض صحيح، كقول يوسف عليه السلام: [اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم](#) [يوسف: 55] أو قصد إخفاء عيب من عيوبه لئلا نزول منزلته، كان ذلك مباحاً، فإن طلب المنزلة باعتقادهم فيه صفة ليست فيه، كالعلم، والورع، والنسب، فذلك محظور. وكذلك لو حسن الصلاة بين أيديهم ليعتقدوا فيه الخشوع. فإنه يكون مرئياً بذلك، فلا يجوز تملك القلوب بتزوير، ولا تملك المال بتلييس.

▲ 2- بيان علاج حب الجاه

اعلم: أن من غلب على قلبه حب الجاه، صار مقصور الهم على مراعاة الخلق، مشغولاً بالتردد إليهم، والمرأة لهم، ولا يزال في أقواله وأفعاله ملتفتاً إلى ما يعظم منزلته عندهم، وذلك بذر النفاق، وأصل الفساد، لأن كل من طلب المنزلة في قلوب الناس

اضطر أن ينافقهم بإظهار ما هو خال عنه، ويجر ذلك إلى المراعاة بالعبادات واقتحام المحظورات، والتوصل إلى اقتناص القلوب. ولذلك شبه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم حب المال والشرف وإفسادهما للدين بذئبين ضاربيين أرسلوا في غنم. فحب الجاه إذاً من المهلكات، يجب علاجه وعلاجه مركب من علم وعمل، أما الأول، فهو أن يعلم أن السبب الذي لأجله أحب الجاه، هو كمال القدوة على أشخاص الناس وقلوبهم، وذلك إذا صفا وسلم يكون في آخره الموت فينبغي أن يتفكر في نفسه في الأخطار والآفات اللاحقة لأصحاب الجاه في الدنيا، من تطرق الحسد إليهم، وقصدهم بالإيذاء، فتراهم خائفين على الدوام من زوال جاههم، محترزين من تغيير منزلتهم في القلوب.

والقلوب أشد تغيراً من القدرة في غليانها، فالاشتغال بمراعاة ذلك غموم عاجلة، مكدره لحفظ الجاه، فلا يفي مرجو الدنيا بمخوفها، فضلاً عما يفوت في الآخرة، فهذا من حيث العلم.

وأما العلاج من حيث العمل، فهو إسقاط الجاه من قلوب الخلق بأفعال توجب ذلك، كما روى أن بعض الملوك قصد زيارة رجل زاهد، فلما قرب منه، استدعى طعامه وبقلاً ولبناً وجعل يأكل بشره، ويعظم اللقمة فلما نظر إليه الملك سقط من عينه. ولما أريد إبراهيم النخعي على القيضاء لبس قميصاً أحمر وقعد في السوق. واعلم: أن انقطاع الزاهد عن الناس يوجب جاهاً له عندهم، فإذا خاف من تلك الفتنة، فليخالطهم على وجه السلامة، وليمش في الأسواق، وليشتر حاجته ويحملها، وكان بشر الحافي يجلس إلى عطار، وكانوا يراعون نواميس المتزهدين اليوم.

▲ 3- فصل [في عدم الاكتراث بدم الناس]

واعلم: أن أكثر الناس إنما هلكوا لخوف مذمة الناس، وحب مدحهم، فصارت حركاتهم كلها على ما يوافق رضى الناس، رجاء المدح، وخوفاً من الذم، وذلك من المهلكات، فوجبت معالجهته. وطريق ذلك أن ننظر إلى الصفة التي مدحت بها، إن كانت موجودة فيك فلا يخلو: إما أن يكون مما يفرح به كالعلم والورع، أو مما لا يصلح أن يفرح به، كالجاه والمال. أما الأول: فينبغي أن يحذر من الخاتمة، فإن الخوف منها شغل عن الفرح بالمدح، ثم إن كنت تفرح بها على رجاء حسن الخاتمة، فينبغي أن يكون فرحك بفضل الله عليك بالعلم والتقوى لا بمدح الناس. وأما القسم الثاني، وهو المدح بسبب الجاه والمال، فالفرح بذلك، كالفرح بنبات الأرض الذي يصير عن قريب هشيماً، ولا يفرح بذلك إلا من قل عقله، وإن كنت خالياً عن الصفة التي مدحت بها، ففرحك بالمدح غاية الجنون.

وقد ذكرنا آفات المدح فيما تقدم في كتاب آفات اللسان، فلا ينبغي أن تفرح به، بل تكرهه، كما كان السلف يكرهونه، ويغضبون على فاعله.

وعلاج كراهية الذم يفهم من علاج حب المدح، فإنه ضده، والقول الوجيز فيه أن من ذمك، إما أن يكون صادقاً فيما قال، قاصداً للنصح لك، فينبغي أن تتقلد منته، ولا تغضب، فإنه قد أهدى إليك عيوبك، وإن لم يقصد بذلك النصح، فإنه يكون قد جنى هو على دينه، وانتفعت بقوله، لأنه عرفك ما لم تكن تعرف، وذكرك من خطاياك ما نسيت، وإن افتري عليك بما أنت منه بريء، فينبغي أن تتفكر في ثلاثة أشياء:

أحدهما: أنك إن خلوت من ذلك العيب لم تخل من أمثاله، فما ستر الله عز وجل عليك من عيوبك أكثر، فاشكره إذ لم يطلعك على عيوبك ودفعه عنك فذكر ما أنت عنه بريء.

الثاني: أن ذلك كفارات لذنوبك.

الثالث: أنه جنى على دينه، وتعرض لغضب الله عليه، فينبغي أن يسأل الله العفو عنه، كما روى أن رجلاً شج إبراهيم بن أدهم، فدعا له بالمغفرة وقال: صوت ماجور بسببه، فلا أجعله معاقباً بسببي، وقد تقدمت هذه الحكاية في فضل الحلم.

باب في بيان الرياء وحقيقته وأقسامه وذمه

وقد ورد ذم الرياء في الكتاب والسنة، من ذلك قوله تعالى: { فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم براءون } [الماعون: 6-4] وقوله: { فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا بشرك عبادته أحداً }. [الكهف: 110] وأما الأحاديث، فقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فيما يرويه عن ربه عز وجل أنه قال: " **من عمل عملاً أشرك فيه غيري، فهو للذي أشرك، وأنا منه بريء**". وفى حديث آخر: أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: " **إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر. قالوا: يا رسول الله: وما الشرك الأصغر؟ قال: الرياء، يقول الله عز وجل لهم يوم القيامة إذ جرى الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا، هل تجدون عندهم خيراً**" وقال بشر الحافي: لأن أطلب الدنيا بمزمار أحب إلى من أن أطلبها بالدين.

واعلم: أن الرياء مشتق من الرؤية، والسمعة مشتقة من السماع، فالمرائي يرى الناس ما يطلب به الحظوة عندهم وذلك أقسام:

▲ الأول: الرياء في الدين، وهو أنواع:

▲ أحدهما: أن يكون من جهة البدن، بإظهار النحول والصفار، ليربهم بذلك شدة الاجتهاد، وغلبة خوف الآخرة، وكذلك يرأى بتشعث الشعر، ليظهر أنه مستغرق في هم الدين، لا يتفرغ لتسريح شعره. ويقرب من هذا خفض الصوت، وإغارة العينين، وذبول الشفتين، ليدل بذلك على أنه مواظب على الصوم، ولهذا قال عيسى بن مريم عليه السلام: إذا صام أحدكم فليدهن رأسه، ويرجل شعره. وذلك لما يخاف على الصائم من آفات الرياء، فهذا الرياء من جهة البدن لأهل الدين. وأما أهل الدنيا، فيراؤون بإظهار السمن، وصفاء اللون، واعتدال القامة، وحسن الوجه، ونظافة البدن.

▲ النوع الثاني: الرياء من جهة الزي، كالإطراق حالة المشي، وإبقاء أثر السجود على الوجه، وغلط الثياب، ولبس الصوف، وتشمير الثياب كثيراً، وتقصير الأكمام، وترك الثوب مخرقاً غير نظيف. ومن ذلك لبس المرقعة، والثياب الزرق، تشبهاً بالصوفية مع الإفلاس من صفاتهم في الباطن. ومنه التفنع فوق العمامة، لتصرف إليه الأعين بالتمييز بتلك العادة. وهؤلاء طبقات، منهم من يطلب المنزلة عند أهل الصلاح، بإظهار التزهّد بلبس الثياب المخرقة الوسخة الغليظة، ليرأى بذلك، ولو كلف هذا أن يلبس ثوباً وسطاً نظيفاً مما كان السلف يلبسونه، لكان عنده بمنزلة الذبح، لخوفه أن يقول الناس: قد بدا له من الزهد، وقد رجع عن تلك الطريقة.

وطبقة أخرى: يطلبون القبول عند أهل الصلاح، وعند أهل الدنيا من الملوك والأمراء والتجار، فلو لبسوا الثياب الفاخرة لم تقبلهم القراء أهل الصلاح، ولو لبسوا المخرقة الدنية لزدرتهم الملوك والأغنياء، فهم يريدون الجمع بين قبول أهل الدين والدنيا، فيطلبون الأثواب الرقيقة، والأكسية الرقيقة والقوط الرقيقة فيلبسونها، وأقل قيمة ثوب أحدهم قيمة ثوب الغنى، ولونه وهيته لون ثياب الصالحاء، فيلبسون القبول عند الفريقين. وهؤلاء لو كلفوا لبس خشن أو وسخ، لكان عندهم كالذبح، خوفاً من السقوط في أعين الملوك والأغنياء، ولو كلفوا لبس الرقيق ورفيع الكتان الأبيض ونحو ذلك، لعظم ذلك عليهم، خوفاً من أن تنحط منزلتهم عند أهل الصلاح، وكل مرآة بزي مخصوص ثقل عليه الانتقال إلى ما دونه أو فوقه خوفاً من المذمة. وأما أهل الدنيا، فمرآاتهم بالثياب

النفيسة، والمراكب الحسنة، وأنواع التجميل في الملبس والمسكن وأثاث البيت، وهم في بيوتهم يلبسون الثياب الخشنة، ويشتد عليهم أن يروا بتلك المنزلة.

▲ **النوع الثالث: الرياء بالقول**، ورياء أهل الدين بالوعظ والتذكير وحفظ الأخبار والآثار، لأجل المحاورة، وإظهار غزارة العلم والدلالة على شدة العناية بأحوال السلف، وتحريك الشفتين بالذكر في محضر الناس، وإظهار الغضب للمنكرات بين الناس، وخفض الصوت وترقيقه بقراءة القرآن، ليدل بذلك على الخوف والحزن ونحو ذلك.

▲ **النوع الرابع: الرياء بالعمل**، كمرآة المصلى بطول القيام، وتطويل الركوع والسجود، وإظهار الخشوع، ونحو ذلك. وكذلك بالصوم والغزو والحج والصدقة ونحو ذلك. وأما أهل الدنيا فمرءاتهم، بالتبخر، والاختيال، وتحريك اليدين، وتقريب الخطى، والأخذ بأطراف الذيل، وإمالة العطفين، ليدلوا بذلك على الحشمة.

▲ **النوع الخامس: المراءاة بالأصحاب والزائرين**، كالذي يتكلف أن يستزير عالماً أو عابداً، ليقال: إن فلاناً قد زار فلاناً، وإن أهل الدين يترددون إليه، ويتبركون به، وكذلك من يرئى بكثرة الشيوخ، ليقال: لقي شيوخاً كثيرة، واستفاد منهم، فيباهى بذلك، فهذه مجامع ما يرئى به المرأؤون، يطلبون بذلك الجاه والمنزلة في قلوب العباد. ومنهم من يطلب مجرد الجاه، وكم من عابد اعتزل في جبل، وراهب انزوى إلى دير، مع قطع طمعهم من مال الناس، لكنه يحب مجرد الجاه. ومنهم من يكون قصده المال، ومنهم من قصده الثناء وانتشار الصيت. فإن قيل: هل الرياء حرام، أم مكروه، أو مباح؟ فالجواب: أن فيه تفصيلاً، وهو إما أن يكون بالعبادات، أو بغيرها، فإن كان الرياء بالعبادات، فهو حرام، فإن المرئى بصلاته وصدقته وحجته، ونحو ذلك، عاص أثم، لأنه يقصد بذلك غير الله تعالى المستحق للعبادة وحده، فالمرئى بذلك في سخط الله. وأما إن كان بغير العبادات، فهو كطلب المال على ما تقدم، لا يحرم من حيث إنه طلب منزلة في قلوب العباد، ولكن كما يمكن كسب المال بتليسات وأسباب محظورة، فكذلك الجاه، وكما أن كسب قليل من المال وهو الذي طلبه يوسف عليه السلام في قوله: **{إني حفيظ عليهم}** [يوسف: 55] ولا نقول بتحريم الجاه وإن كثر، إلا إذا حمل صاحبه على ما لا يجوز على نحو ما ذكرنا في المال. وأما سعة الجاه من غير حرص على طلبه، ومن غير اعتماد بزواله وإن زال، فلا ضرر فيه، إذ لا جاه أوسع من جاه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعلماء الدين بعده، ولكن انصراف الهمم إلى طلب الجاه نقصان في الدين، ولا يوصف بالتحريم. وتحسين الثوب الذي يلبسه الإنسان عند الخروج إلى الناس، إنما هو ليراه الناس، وكذلك كل تجميل لأجلهم لا يقال: إنه منهي عنه. وقد تختلف المقاصد بذلك، فإن أكثر الناس يحبون أن لا يروا بعين نقص في حال. وفي أفراد مسلم، من حديث ابن مسعود رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: **"لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر"**، فقال رجل: **إن الرجل يجب أن يكون ثوبه حسنة، ونعله حسنة، فقال: "إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس"**. ومن الناس من يؤثر إظهار نعمة الله عليه، وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بذلك.

▲ 1- فصل [في أبواب الرياء بعضها أشد من بعض]

واعلم: أن بعض أبواب الرياء أشد من بعض، لأنه درجات. أشدها وأغلظها أن لا يكون مراده بالعبادة الثواب أصلاً، كالذي يصلى بين الناس، ولو انفرد لم يصل.

الدرجة الثانية: أن يقصد الثواب مع الرياء قصداً ضعيفاً بحيث لو كان خالياً لم يفعله، فهو قريب من القسم الأول في كونهما ممقوتين عند الله تعالى.

الدرجة الثالثة: أن يكون قصد الرياء، وقصد الثواب متساويين، بحيث لو انفرد كل واحد منهما عن الآخر لم يبعثه على العمل، فهذا قد أفسد مثل ما أصلح، ولا يسلم من الإثم

الرابعة: أن يكون إطلاع الناس عليه مقويًا لنشاطه، ولو لم يطلع عليه أحد لم يترك العبادة، فهذا يثاب على قصده الصحيح، ويعاقب على قصده الفاسد، وقريب من ذلك الرياء بأوصاف العبادة لا بأصلها، كالذي يصلي وعرضه تخفيف الركوع والسجود ولا يطيل القراءة، فإذا رآه الناس أحسن ذلك فهذا أيضاً من الرياء المحذور، لأنه يتضمن تعظيم الخلق، ولكنه دون الرياء بأصول العبادات.

▲ 2- بيان الرياء الخفي الذي هو أخفى من دبيب النمل

اعلم أن الرياء جلي وخفي.

فالجلي: هو الذي يبعث على العمل ويحمل عليه. وأخفى منه قليلاً رياء لا يبعث على العمل بمجردة، لكن يخفف العمل الذي أريد به وجه الله تعالى، كالذي يعتاد التهجد كل ليلة ويثقل عليه فإذا نزل عنده ضيف نشط له وسهل عليه. وأخفى من ذلك ما لا يؤثر في العمل ولا في التسهيل، لكنه مع ذلك مستبطن في القلب، ومتى لم يؤثر الدعاء في العمل لم يكن أن يعرف إلا بالعلامات، وأجلى علاماته أنه يسر باطلاع الناس على طاعته، فرب عبد مخلص يخلص العمل، ولا يقصد الرياء بل يكرهه، ويتم العمل على ذلك، لكن إذا اطلع الناس عليه سره ذلك وارتاح له، وروح ذلك عن قلبه شدة العبادة، فهذا السرور يدل على رياء خفي منه يرشح السرور، ثم إذا استشعر تلك اللذة بالاطلاع لم يقابل ذلك بكراهة، بل قد يتحرك حركة خفيفة، ويتكلف أن يطلع عليه بالتعريض لا بالتصريح. وقد يخفى، فلا يدعو إلى الإظهار بالنطق تعريضاً ولا تصريحاً، ولكن بالشمائل كإظهار النحول، والصفار، وخفض الصوت، وبيس الشفتين وأثار الدموع وغلبة النعاس الدالة على طول التهجد.

وأخفى من ذلك أن يختفي بحيث لا يريد الاطلاع عليه، ولكنه مع ذلك إذا رأى الناس أحب أن يبدووه بالسلام، وأن يقابلوه بالبشاشة والتوقير وينشطوا في قضاء حوائجه، وبسامحوه في المعاملة، ويوسعوا له المكان، فان قصر في ذلك مقصر، ثقل ذلك على قلبه، كأن نفسه تتقاضى الاحترام على الطاعة التي أخفاها. ومتى لم يكون وجود العبادة كعدمها في كل ما يتعلق بالخلق، لم يكن خالياً عن شوب خفي من الرياء، وكل ذلك يوشك أن يقص الأجر، ولا يسلم منه إلا الصديقون. وقد روينا عن وهب بن منبه، أن رجلاً من العباد قال لأصحابه: إنا قد فارقنا الأموال والأولاد مخافة الطغيان، وأنا نخاف أن يكون قد دخل علينا في أمرنا من هذا الطغيان أكثر مما دخل على الأهل الأموال في أموالهم، إن أحدنا إذا لقي أحب أن يعظم لمكان دينه، وإن كان له حاجة أحب أن تقضى لمكان دينه؛ وإن اشترى شيئاً أحب أن يرخص له لمكان دينه، فبلغ ذلك ملكهم، فركب في موكبه، فإذا السهل والجبل قد امتلأ من الناس، فقال العابد: ما هذا؟ قيل: هذا الملك، فقال لصاحبه: ائنتي بطعام، فاتاه ببقل وزبيب وقلوب الشجر، فجعل يحشو شذقيه وبأكل أكلاً عنيفاً، فقال الملك: أين صاحبكم؟ فقالوا: هذا، كيف أنت؟ قال: كالناس، فقال الملك ما عند هذا خير، وانصرف عنه، فقال: الحمد لله الذي صرفه عنى وهو لى لائم. ولم يزل المخلصون خائفين من الرياء الخفي، يجتهدون في مخادعة الناس عن أعمالهم الصالحة، ويحرصون على إخفائها أعظم ما يحرص الناس على إخفاء فواحشهم، كل ذلك رجاء أن يخلص عملهم ليجازيهم الله تعالى في القيامة بإخلاصهم.

وشوائب الرياء الخفي كثيرة لا تنحصر، ومتى أدرك الإنسان من نفسه تفرقة بين أن يطلع على عيادته أو لا يطلع، ففيه شعبة من الرياء، ولكن ليس كل شوب محبطاً للأجر ومفسداً للعمل، بل فيه تفصيل.

فإن قيل: فما ترى أحداً ينفك عن السرور إذا عرفت طاعته، فهل جميع ذلك مذموم؟
فالجواب: أن السرور ينقسم إلى محمود ومذموم.

فالمحمود: أن يكون قصده إخفاء الطاعة والإخلاص لله، ولكن لما اطلع عليه الخلق علم أن الله تعالى أطلعهم وأظهر الجميل من أحواله، فيسر بحسن صنع الله ونظره له ولطفه به، حيث كان يستر الطاعة والمعصية، فأظهر الله سبحانه عليه الطاعة، وستر عليه المعصية، ولا لطف أعظم من ستر القبيح، وإظهار الجميل، فيكون فرحه بذلك، لا بحمد الناس وقيام المنزلة في قلوبهم، أو يستدل بإظهار الله الجميل، وستر القبيح عليه في الدنيا، أنه كذلك يفعل به في الآخرة، فإنه قد جاء معنى ذلك في الحديث.

فأما إن كان فرحه باطلاع الناس عليه لقيام منزلته عندهم، حتى يمدحوه ويعظموه ويقضوا حوائجه، فهذا مكروه مذموم.

فإن قيل: فما وجه حديث أبي هريرة رضى الله عنه قال: قال رجل: يا رسول الله، الرجل يعمل العمل فيسره، فإذا اطلع عليه، أعجبه، فقال: " له أجران : أجر السر، وأجر العلانية". فالجواب : أن هذا الحديث ضعيف، وقد رواه الترمذى، وفسره بعض أهل العلم بأن معناه: أن يعجبه ثناء الناس عليه بالخير، لقوله عليه السلام : "أنتم شهداء الله في الأرض". وقد روى في أفراد مسلم من حديث أبي ذر رضى الله عنه قال : قيل : يا رسول الله أرأيت الرجل يعمل العمل من الخير ويحمده الناس عليه؟ فقال: " تلك عاجل بشرى المؤمن". فأما إذا أعجبه ليعلم الناس منه الخير ويكرموه عليه، فهذا رياء.

▲ 3- فصل في بيان ما يحبط العمل من الرياء وما لا يحبط

إذا ورد على العبد وراد الرياء، فلا يخلو: إما أن يكون ورد بعد فراغه من العبادة أو قبله، فإن ورد عليه بعد الفراغ سرور بالظهور من غير إظهار منه، فهذا لا يحبط العمل، لأنه قد تم على نعت الإخلاص فلا ينعطف ما طرأ عليه بعده، لا سيما إذا لم يتكلف هو إظهاره والتحديث به، فأما إن تحدث به بعد تمامه وأظهره، فهذا مخوف، والغالب عليه أنه كان في قلبه وقت مباشرة العمل نوع رياء، فإن سلم من الرياء نقص أجره، فإن بين عمل السر والعلانية سبعين درجة.

وأما إذا ورد الرياء قبل الفراغ من العبادة، كالصلاة التي عقدها على إخلاص فإن كان مجرد سرور، لم يؤثر في العمل، وإن كان رياء باعثاً على العمل، مثل أن يطيل الصلاة ليرى مكانه، فهذا يحبط الأجر. وأما ما يقارن العبادة، مثل أن يبتدئ الصلاة على قصد الرياء، فإن أتمها على ذلك لم يعتد بها، وإن ندم فيها على فعله، فالذي ينبغي له أن يبتدئها، والله أعلم. وأما ما يقارن العبادة، مثل أن يبتدئ الصلاة على قصد الرياء، فإن أتمها على ذلك لم يعتد بها، وإن ندم فيها على فعله، فالذي ينبغي له أن يبتدئها، والله أعلم.

▲ 4- فصل في دواء الرياء وطريقة معالجة القلب فيه

قد عرفت أن الرياء محبط للأعمال، وسبب لمقت الله تعالى، وأنه من المهلكات، ومن هذا حاله، فجدير بالتشمير عن ساق الجد في إزالته.

وفى معالجته مقامان:

أحدهما: في قلع عروقه وأصوله التي منها انشعابه.

والثاني: في دفع ما يخطر منه في الحال.المقام الأول: اعلم أن أصل الرياء حب الجاه والمنزلة، وإذا فصل، رجع إلى ثلاثة أصول.وهى حب لذة الحمد، والفرار من ألم الذم، والطمع فيما في أيدي الناس.وبشهاد لذلك ما في " الصحيحين " من حديث أبي موسى رضى الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم : فقال يا رسول الله، أرأيت الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حمية، ويقاتل رياء، فأى ذلك في سبيل الله؟ فقال: " من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فهو في سبيل الله ". فمعنى قوله: يقاتل شجاعة" أي: ليذكر ويحمد، ومعنى قوله "يقاتل حمية" أي : يأنف أن يقهر أو يذم، ومعنى: "يقاتل رياء" أي: ليرى مكانه، وهذه هو لذة الجاه والمنزلة في القلوب.وقد لا يشتهي الإنسان الحمد، ولكنه يحذر من الذم، كالجبان بين الشجعان، فإنه يثبت ولا يفر لئلا يذم. وقد يفتى الإنسان بغير علم حذراً من الذم فإن آدم عليه السلام عصى مشتهياً فغفر له ، فإذا كانت معصية من كبر فاخش عليه اللعنة ، فإن إبليس عصى مستكبراً فلعن وفي الصحيحين : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من جر ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة ، فقال أبو بكر : يا رسول الله إن أحد شقي إزارى ليسترخي ،

إلا أن أتعاهد ذلك منه ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : " لست ممن يصنعه خيلاء "واعلم أن الكبر خلق باطن تصدر عنه أعمال هي ثمرته فيظهر على الجوارح وذلك الخلق هو رؤية النفس على المتكبر عليه ، يعني يرى نفسه فوق الغير في صفات الكمال ، فعند ذلك يكون متكبراً.وبهذا يفصل عن العجب ، فإن العجب لا يستدعي غير المعجب ، حتى لو قد أن يخلق الإنسان وحده تصور أن يكون معجبا ، ولا يتصور أن يكون متكبرا ، إلا أن يكون مع غيره وهو يرى نفسه فوقه ، فإن الإنسان متى رأى نفسه بعين الاستعظام ، حقر من دونه وازدراه ، وصفة هذا المتكبر ، أن يكون إلى العامة كأنه ينظر إلى الحمير استهجالاً واستحقاراً!وأفة الكبر عظيمة ، وفيه يهلك الخواص ، وقلما ينفك عنه العباد والزهاد والعلماء .وكيف لا تعظم آفته ، وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أنه " لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر " :وإنما صار حجاباً دون الجنة ، لأنه يحول بين العبد وبين أخلاق المؤمنين ، لأن صاحبه لا يقدر أن يحب للمؤمنين ما يحب لنفسه ، فلا يقدر على التواضع ، ولا على ترك الحقد والحسد والغضب ، ولا على كظم الغيظ وقبول النصح، ولا يسلم من الازدراء واغتيابهم ، فما من خلق ذميم إلا وهو مضطر إليه.

ومن شر أنواع الكبر ما يمنع من استفادة العلم ، وقبول الحق ، والانقياد له وقد تحصل المعرفة للمتكبر ، ولكن لا تطاوعه نفسه على الانقياد للحق ، كما قال تعالى : ([وحددوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً](#)) (النمل : 14) ([فقالوا أنؤمن لشرين مثلاً](#)) (المؤمنون : 47) ([إن أنتم إلا بشر مثلاً](#)) (إبراهيم : 10) وآيات كثيرة نحو هذا ، وهكذا تكبر على الله وعلى رسوله .يعارضه بخطرات الرياء ، فإذا خطر له معرفة الخلق بعبادته واطلاعهم عليها ، دفع ذلك بأن يقول : مالك وللخلق علموا أو لم يعلموا ، والله عالم بحالك ، فأى فائدة في علم غيره فإن هاجت الرغبة إلى آفة الحمد ، ذكرها آفات الرياء والتعرض للمقت ، فيقابل تلك الرغبة بكراهة المقت ، فإن معرفة اطلاع الناس تثير شهوة ، ومعرفة آفة الرياء تثير كراهة .

▲ 5 - فصل في بيان الرخصة في قصد إظهار الطاعات وبيان الرخصة في كتمان الذنوب

وكراهة اطلاع الناس على الذنب وذمهم له

أما الأول ، فاعلم أن في إسرار الأعمال فائدة لإخلاص والنجاة من الرياء ، وفي الإظهار فائدة الاقتداء ، وترغيب الناس في الخير .ومن الأعمال ما لا يمكن الإسرار به كالحج

والجهاد .والمظهر للعمل ينبغي أن يراقب قلبه ، حتى لا يكون فيه حب الرياء الخفي ، بل ينوي الاقتداء به ، ولا ينبغي للضعيف أن يخدع نفسه بذلك ، فإن مثال الضعيف مثل الغريق الذي يحسن سباحة ضعيفة ، فنظر إلي جماعة من الغرقى فرحمهم ، وأقبل عليهم حتى تشبثوا به ، فهلكوا وهلك معهم .فأما من قوي وتم إخلاصه ، وصغر الناس في عينه ، واستوى عنده مدحهم وذمهم ، فلا بأس بالإظهار له ، لأن الترغيب في الخير خير .وقد روي ذلك عن جماعة من السلف أنهم كانوا يظهرون شيئاً من أحوالهم الشريفة ليقندي بهم ، كما قال بعضهم لأهله حين احتضر : لا تبكوا علي ، فإني ما لفظت بخطيئة منذ أسلمت .وقال أبو بكر بن عياش رحمه الله لابنه : إياك أن تعصي الله تعالى في هذه الغرفة ، فإني ختمت فيها اثني عشر ألف ختمة .ونحو ذلك كثير من كلامهم ، والله أعلم .

وأما الرخصة في كتمان الذنوب ، فربما ظن طان أن كتمان الخطايا رياء ، وليس كذلك فإن الصادق الذي لا يراني إذا وقعت منه معصية ، كان له سترها ، لأن الله يكره ظهور المعاصي ويحب سترها .وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " **من ارتكب شيئاً من هذه القاذورات ، فليستتر بستر الله عز وجل** " فهذا وإن عصى بالذنوب ، لم يخل قلبه عن محبة ما أحبه الله عز وجل ، وهذا ينشأ عن قوة الإيمان .وينبغي أن يكره ظهور الذنوب من غيره أيضاً ، فهذا أثر الصدق فيه .ومن ذلك أن يكره ذم الناس له ، من حيث إن ذلك يشغل قلبه وعقله عن طاعة الله تعالى ، فإن الطبع يتأذى بالذم ، وبهذه العلة أيضاً ينبغي أن يكره المدح إذا كان يشغله عن الله تعالى ، ويستغرق قلبه ، ويصرفه عن الذكر ، فإن هذا أيضاً من قوة الإيمان .

▲ 6 - فصل في ترك الطاعات خوفاً من الرياء

فأما ترك الطاعات خوفاً من الرياء ، فإن كان الباعث له على الطاعة غير الدين ، فهذا ينبغي أن يترك ، لأنه معصية لا طاعة فيه .وإن كان الباعث على ذلك الدين ، وكان ذلك لأجل الله تعالى خالصاً ، فلا ينبغي أن يترك العمل ، لأن الباعث الدين .وكذلك إذا ترك العمل خوفاً من أن يقال : إنه مرأءٍ ، فلا ينبغي ذلك ، لأنه من مكائد الشيطان قال إبراهيم النخعي : إذا أتاك الشيطان وأنت في الصلاة فقال : إنك مرأءٍ ، فزدها طولاً .وأما ما روي عن بعض السلف أنه ترك العبادة خوفاً من الرياء ، كما روي عن إبراهيم النخعي أن إنساناً دخل عليه وهو يقرأ في المصحف ، فأطبق المصحف وترك القراءة ، وقال : لا يراني هذا أني أقرأ كل ساعة ، فيحمل هذا علي أنهم أحسوا من نفوسهم بنوع تزيين فقطعوا !

▲ 7 - فصل في بيان ما يصح من نشاط العبد بسبب رؤية الخلق وما لا يصح

قد بييت الرجل مع المتجهدين ، فيصلون أكثر الليل ، وعادته قيام ساعة ، فيوافقهم ، أو يصومون فيصوم ، ولولاهم ما انبعث هذا النشاط .فربما ظن طان أن هذا رياء ، وليس كذلك على الإطلاق ، بل فيه تفصيل ، وهو أن كل مؤمن يرغب في عبادة الله تعالى ، ولكن تعوقه العوائق ، فإن الإنسان إذا كان في منزله تمكن من النوم على فراش وطيء وتمتع بزوجته ، فإذا بات في مكان غريب ، اندفعت هذه الشواغل ، وحصلت له أسباب تبعث على الخير ، منها مشاهدة العابدين .وقد يعسر عليه الصوم في منزله لكثرة المطاعم ، بخلاف غيره ، ففي مثل هذه الأحوال ينتدب الشيطان للصد عن الطاعة ، ويقول : إذا عملت غير عادتك كنت مرأئياً فلا ينبغي أن يلتفت إليه ، وإنما ينبغي أن ينظر إلى قصده الباطن ، ولا يلتفت إلى وسواس الشيطان ويختبر أمره بأن يمثل القوم في مكان يراهم ولا يرونه ، فإن رأى نفسه تسخو بالتعب فهو لله ، وإن لم تسخ كان سخاؤها عندهم رياء ، وقس على هذا .فهذه جملة آفات الرياء ، فكن باحثاً عنها ، وتفقد نيتك ،

فإن الرياء أخفى من ديب النمل .وينبغي للمريد أن يلزم قلبه الفناعة بعلم الله في جميع طاعته .وإنما يقنع بذلك من خاف الله ورجاه ، ولا ينبغي أن يؤسس نفسه من الإخلاص

بأن يقول : إنما يقدر على الإخلاص الأقوياء ، وأنا من المخلطين ، فيترك المجاهدة في تحصيل الإخلاص ، لأن المخلط إلى ذلك أحوج .قال إبراهيم بن أدهم : تعلمت المعرفة من راهب يقال له سمعان : دخلت على صومعته فقلت له : منذ كم أنت في صومعتك هذه ؟ قال منذ سبعين سنة ، قلت : ما طعامك ؟ قال : كل ليلة حمصة ، قلت : فما الذي يهيج من قلبك حتى تكفيك هذه الحمصة ؟ قال : ترى (الدير) الذي بحذاءك ؟ قلت : نعم ، قال : إنهم يأتوني في كل سنة يوماً واحداً فيزينون صومعتي ويطوفون حولها يعظموني بذلك ، فكلما تناقلت نفسي عن العبادة ، ذكرت لها عز تلك الساعة ، فأنا أحتمل جهد سنة لعز ساعة ، فاحتمل يا حنيفي جهد ساعة لعز الأبد ، فوقر في قلبي المعرفة ، فقال : أزيدك ؟ قلت : نعم ، قال : أنزل عن الصومعة ، فنزلت فأدلى إلي ركة فيها عشرين حمصة ، ثم قال لي : ادخل الدير ، فقد رأوا ما أدليت إليك ، فلما دخلت الدير ، اجتمعت النصارى فقالوا : يا حنيفي ، ما الذي أدلى إليك الشيخ ؟ قلت : شيئاً من قوته . قالوا : وما تصنع به ؟ نحن أحق به ، ساوم به ، قلت : عشرون ديناراً ، فأعطوني عشرين ديناراً ، فرجعت إلى الراهب ، فقال : أخطأت ، لو ساومتهم عشرين ألفاً لأعطوك ، هذا عز من لا يعبده ، فانظر كيف يكون عز من يعبده ، يا حنيفي أقبل على عبادة ربك .فقد بان بهذا أن استشعار النفوس عز العظمة في القلوب يكون باعثاً إلى الخلوة ، فهذه آفة عظيمة ، وعلامة سلامته منها أن يكون الخلق عنده والبهائم بمثابة واحدة ، ويكون عمله عمل من ليس على الأرض غيره ، فإذا خطرت خطرات ضعيفة ردها الله ، والله تعالى أعلم .

كتاب ذم الكبر والعجب

وهما فصلان:

1- الفصل الأول في الكبر:

قال الله تعالى: [{سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق}](#) [الأعراف:146] وقال: [{إنه لا يحب المتكبرين}](#)[النحل:23].

وفى الحديث الصحيح من أفراد مسلم، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: " لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر".وفى "الصحيحين" عنه صلى الله عليه وآله وسلم قال: "قالت النار: أوثرت بالمتكبرين".وعنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: " يحشر الجبارون والمتكبرون يوم القيامة في صورة الذر، يطوهم الناس لهوانهم على الله عز وجل".وقال سفيان بن عيينة رحمة الله : من كانت معصيته في شهوة، فارح له التوبة، فإن آدم عليه السلام عصى مشيتها فغفر له، فإذا كانت معصيته من كبر، فاحش عليه اللعنة، فإن إبليس عصى مستكبراً فلعن.وفى "الصحيحين" : أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: " من جر ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة، فقال أبو بكر: يارسول الله إن أحد شقي إزاري ليسترخي، إلا أن أتعاهد ذلك منه؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : " لست ممن يصنعه خيلاء".واعلم: أن الكبر خلق باطن تصدر عنه أعمال هي ثمرته، فيظهر على الجوارح، وذلك الخلق هو رؤية النفس على المتكبر عليه، يعنى يرى نفسه فوق الغير في صفات الكمال، فعند ذلك يكون متكبراً.وبهذا ينفصل عن العجب، فإن العجب لا يستدعى غير المعجب، حتى لو قدر أن يخلق الإنسان وحده تصور أن يكون معجباً، ولا يتصور أن يكون متكبراً، إلا أن يكون مع غيره وهو يرى نفسه فوقه، فإن الإنسان متى رأى نفسه بعين الاستعظام ، حقر من دونه وازدراه، وصفة هذا المتكبر، أن ينظر إلى العامة كأنه ينظر إلى الحمير استجهالاً

واستحقاراً. وآفة الكبر عظيمة، وفيه يهلك الخواص، وقلما ينفك عنه العباد والزهاد والعلماء. وكيف لا تعظم آفته، وقد أخبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم: أنه لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر. وإنما صار حجاباً دون الجنة، لأنه يحول بين العبد وبين أخلاق المؤمنين، لأن صاحبه لا يقدر أن يحب للمؤمنين ما يحب لنفسه، فلا يقدر على التواضع، ولا على ترك الحقد والحسد والغضب، ولا على كظم الغيظ وقبول النصيحة، ولا يسلم من الازدراء بالناس واغتيابهم. فما من خلق ذميم إلا وهو مضطر إليه. ومن شر أنواع الكبر ما يمنع من استفادة العلم، وقبول الحق، والانقياد له. وقد تحصل المعرفة للمتكبر، ولكن لا تطاوعه نفسه على الانقياد للحق، كما قال تعالى: [{وحددوا بها واستبقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً}](#) [النمل: 14] [{فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا}](#) [المؤمنون: 47] [{إن أنتم إلا بشر مثلنا}](#) [إبراهيم: 10] وآيات كثيرة نحو هذا، وهذا تكبر على الله وعلى رسوله. وقد تقدم أن التكبر على العباد هو احتقارهم واستعظام نفسه عليهم، وذلك أيضاً يدعو إلى التكبر على أمر الله تعالى، كما حمل إبليس كبره على آدم عليه السلام أن امتنع من امتثال أمر ربه في السجود. وقد شرح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الكبر فقال: " **الكبر: بطر الحق وغمط الناس**". ومعنى غمط الناس " الازدراء بهم، واستحقارهم. وبروى: غمص الناس بمعنى غمط الناس.

▲ 1- فصل [في تقسيم آفات الكبر]

واعلم: أن العلماء والعباد في آفة الكبر على ثلاثة درجات:

الأولى: أن يكون الكبر مستقراً في قلب الإنسان منهم، فهو يرى نفسه خيراً من غيره، إلا أنه يجتهد ويتواضع، فهذا في قلبه شجرة الكبر مغروسة، إلا أنه قد قطع أغصانها.

الثانية: أن يظهر لك بأفعاله من الترفع في المجالس، والتقدم على الأقران، والإنكار على من يقصر في حقه، فترى العالم يصغر خده للناس، كأنه معرض عنهم، والعابد يعيش ووجهه كأنه مستقذر لهم، وهذان قد جهلا ما أدب الله به نبيه صلى الله عليه وآله وسلم، حين قال: [{واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين}](#) [الشعراء: 215]

الدرجة الثالثة: أن يظهر الكبر بلسانه، كالدعاوى والمفاخر، وتركية النفس، وحكايات الأحوال في معرض المفاخرة لغيره، وكذلك التكبر بالنسب، فالذي له نسب شريف يستحقر من ليس له ذلك النسب وإن كان أرفع منه عملاً. قال ابن عباس: يقول الرجل للرجل: أنا أكرم منك، وليس أحد أكرم من أحد إلا بالتقوى. قال الله تعالى: [{إن أكرمكم عند الله أتقاكم}](#) [الحجرات: 13]. وكذلك التكبر بالمال، والجمال، والقوة، وكثرة الأتباع، ونحو ذلك، فالكبر بالمال أكثر ما يجرى بين الملوك والتجار ونحوهم. والتكبر بالجمال أكثر ما يجرى بين النساء، ويدعوهن إلى التنقص والغبية وذكر العيوب. وأما التكبر بالأتباع والأنصار، فيجرى بين الملوك بالمكاثرة بكثرة الجنود، وبين العلماء بالمكاثرة بالمستفيدين. وفي الجملة فكل ما يمكن أن يعتقد كمالاً، فإن لم يكن في نفسه كمالاً، أمكن أن يتكبر به، حتى إن الفاسق قد يفتخر بكثرة شرب الخمرة والفجور، لظنه أن ذلك كمال. واعلم: أن التكبر يظهر في شمائل الإنسان، كصغر وجهه، ونظره شزرأ، وإطراق رأسه، وجلوسه متربعاً ومتكئاً، وفي أقواله، حتى في صوته ونغمته، وصيغة إيراده الكلام، ويظهر ذلك أيضاً في مشيه وتبخره، وقيامه وعوده وحركاته وسكناته وسائر تقلباته.

و▲ **من خصائل المتكبر**، أن يحب قيام الناس له.

والقيام علي ضربين: قيام علي رأسه وهو قاعد، فهذا منهبي عنه، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: " من أحب أن يتمثل له الرجال قياماً فليتبوأ مقعده من النار". وهذه عادة الأعاجم والمتكبرين.

الثاني: قيام عند مجيء الإنسان، فقد كان السلف لا يكادون يفعلون ذلك.

قال أنس : لم يكن شخص أحب إلينا من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وكانوا إذا رأوه لم يقوموا لما يعلمون من كراهته لذلك. وقد قال العلماء: يستحب القيام للوالدين والإمام العادل، وفضلاء الناس، وقد صار هذا كالشعار بين الأفاضل، فإذا تركه الإنسان في حق من يصلح أن يفعل في حقه، لم يأمن أن ينسبه إلى إهانتته، والتقصير في حقه، فيوجب ذلك حقداً. واستحباب هذا في حق القائم لا يمنع الذي يقام له أن يكره ذلك، ويرى أنه ليس بأهل لذلك. ومن خصال المتكبر: أن لا يمشى إلا ومعه أحد يمشى خلفه. ومنها أن لا يزور أحداً تكبراً على الناس. ومنها أن يستنكف من جلوس أحد إلى جانبه أو مشيه معه. وقد روى أنس رضى الله عنه قال: كانت الأمة من أهل المدينة لتأخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فتنتطق به في حاجتها. وقال ابن وهب: جلست إلى عبد العزيز بن أبي رواد، وإن فخذى لتمس فخذه فنحيت نفسي عنه، فأخذ ثيابي فجرني إليه وقال: لم تفعلون بي ما تفعلون بالجبارة، وإني لا أعرف منكم رجلاً شراً مني؟؟ ومنها أن لا يتعاطى بيده شغلاً في بيته، وهذا بخلاف ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ومنها أن لا يحمل متاعه من سوقه إلى بيته، وقد اشترى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شيئاً وحمله. وكان أبو بكر رضى الله عنه يحمل الثياب إلى السوق يتجر فيها. واشترى عمر رضى الله عنه لحماً فعلقه بيده وحمله إلى بيته. واشترى علي رضى الله عنه تمراً فحمله في ملحفة، فقال له قائل: أحمل عنك؟ قال: لا، أبو العيال أحق أن يحمل.

وأقبل أبو هريرة رضى الله عنه يوماً من السوق وقد حمل حزمة حطب، وهو يومئذ خليفة مروان، فقال لرجل: أوسع الطريق للأمير.

ومن أراد إن ينفى الكبر، ويستعمل التواضع، فعليه بسيرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وقد سبقت الإشارة إليها في كتاب "آداب المعيشة".

▲ 2. بيان معالجة الكبر واكتساب التواضع

واعلم: أن الكبر من المهلكات، ومداواته فرض عين، ولك في معالجته مقامان:

الأول: في استئصال أصله وقطع شجرته، وذلك بأن يعرف الإنسان نفسه ويعرف ربه، فإنه إذا عرف نفسه حق المعرفة، علم أنه أدل من كل ذليل، وبكفيه أن ينظر في أصل وجوده بعد العدم من تراب، ثم من نطفة خرجت من مخرج البول، ثم من علقه، ثم من مضغة، فقد صار شيئاً مذكوراً، بعد أن كان جماداً لا يسمع ولا يبصر، ولا يحس ولا يتحرك، فقد ابتداء بموته قبل حياته، وبضعفه قبل قوته، وبفقره قبل غناه.

وقد أشار الله تعالى إلى هذا بقوله: { من أي شيء خلقه * من نطفة خلقه فقدره } [عبس: 18 و19] ثم امتن عليه بقوله: { ثم السبيل يسره } [عبس: 20]، وبقوله: { فجعلناه سمعاً بصيراً } [الذهر: 2] فأحياه بعد الموت، وأحسن تصويره، وأخرجه إلى الدنيا، فأشبعه وأرواه، وكساه وهدهاه وقواه. فمن هذا بدايته، فأى وجه لكبره وفخره؟ على أنه لو دام له الوجود على اختياره لكان لطغيانه طريق، بل قد سلط عليه الأخلاط المتضادة، والأمراض الهائلة، بينما بنيانه قد تم، إذ هو قد وهى وتهدم، لا يملك الشيء لنفسه ضراً ولا نفعاً، بينها هو يذكر الشيء فينساه، ويستلذ بشيء فيرديه، وبروم الشيء فلا يناله، ثم لا يأمن أن يسلب حياته بغتة. هذا أوسط حاله، وذاك أول أمره، وأما آخر أمره، فالموت الذي يعده جماداً كما كان، ثم يلقى في التراب فيصير جيفة منتنه، وتبلى أعضاؤه، وتنخر

عظامه، ويأكل الدود أجزاءه، ويعود تراباً يعمل منه الكيزان ، ويعمر منه البنيان ، ثم بعد طول البلى تجمع أجزاءه المتفرقة، ويحضر عرصة القيامة، فيرى أرضاً مبدلة، وجبالاً مسيرة، وسماً منشقة، ونجوماً منكدره، وشمساً مكورة، وأحوالاً مظلمة، ورحيماً تزفر، وصحائف تنشر ، ويقال له: {اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيماً} [الإسراء:14]. فيقول : وما كتابي؟ فيقال : كان قد وكل بك في حياتك التي كنت تفرح بها وتتكبر بنعيمها ملكان يحصيان ما تنطق به وتعمل من قليل وكثير، وقيام وعود، وأكل وشرب، وقد نسيت ذلك، وأحصاه الله تعالى، فهلم إلى الحساب عليه ، وأعد جواباً به، وإلا فأنت تساق إلى النار، فما لمن هذه حاله التكبر؟ فإن صار إلى النار ، فالبهائم أحسن حالاً منه، لأنه تعود إلى التراب، ومن هذا حاله وهو على شك من العفو عن أخطائه، كيف يتكبر؟

ومن الذي يسلم من ذنب يستحق به العقوبة، وما مثله إلا كمثل رجل جنى على ملك جناية استحق أن يضرب لأجلها ألف سوط، فحبس في السجن ليخرج فيعاقب، وهو منتظر أن يدعى به لذلك. أفتراه يتكبر على أهل السجن؟ وهل الدنيا إلا سجن، وهل المعاصي إلا موجبة للعقاب؟. وأما معرفة ربه، فيكفيه أن ينظر في آثار قدرته وعجائب صنعته، فتلوح له العظمة، وتظهر له المعرفة، فهذا هو العلاج القالع لأصل الكبر. ومن العلاج العملي التواضع بالفعل لله تعالى ولعباده، وذلك بالمواظبة على استعمال خلق المتواضعين، وقد تقدمت الإشارة إلى طريقة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وما كان عليه من التواضع والأخلاق الجميلة.

المقام الثاني: فيما يعرض من التكبر بالأنساب، فمن اعتراه الكبر من جهة النسب، فليعلم أن هذا تعزز بكمال غيره، ثم يعلم أباه وجاهه، فإن أباه القريب نطفة قذرة، وأباه البعيد تراب، ومن اعتراه الكبر بالجمال، فلينظر إلى باطنه نظر العقلاء، ولا ينظر إلى ظاهره نظر البهائم، ومن اعتراه من جهة القوة، فليعلم أنه لو ألمه عرق، عاد أعجز من كل عاجز ، إن حمى يوم تحلل من قوته ما لا يود في مدة ، وإن شوكة لو دخلت في رجله لأعجزته، وبقة لو دخلت في أذنه لأقلقتة.

ومن تكبر بسبب الغنى ، فإذا تأمل خلقاً من اليهود، وجدهم أغنى منه، فأف لشرف تسبق به اليهود ويستلبه السارق في لحظة، فيعود صاحبه ذليلاً. ومن تكبر بسبب العلم، فليعلم أن حجة الله على العالم ألد من الجاهل، وليتفكر في الخطر العظيم الذي هو بصده، فإن خطره أعظم من خطر غيره، كما أن قدره أعظم من قدر غيره. وليعلم أيضاً أن الكبر لا يليق [إلا] بالله سبحانه ، وأنه إذا تكبر صار ممقوتاً عند الله تعالى بغيضاً عنده. وقد أحب الله منه أن يتواضع، وكذلك كل سبب يعالجه بنقيضه ويستعمل التواضع. وإعلم: أن هذا الخلق كسائر الأخلاق له طرفان ووسط: فطرفه الذي يميل إلى الزيادة تكبراً. وطرفه الذي يميل إلى النقصان يمسي تخاسباً ومذلة. والوسط يمسي تواضعاً، وهو المحمود وهو أن يتواضع من غير مذلة، فخير الأمور أوساؤها، فمن تقدم على أقرانه فهو متكبر، ومن تأخر عنهم، فهو متواضع، لأنه قد وضع شيئاً من قدره، فأما إذا أدخل على العالم إسكاف أو نحوه، فتنحى له عن مجلسه أو أجلسه فيه، ثم قدم له نعله ومشى معه إلى الباب، فقد تخاسس وتذلل، فذلك غير محمود، بل المحمود العدل، وهو أن يعطى كل ذي حق حقه، لكن تواضعه للسوقة بالرفق في السؤال واللين في الكلام،

وإجابة الدعوة، والسعى في الحاجة، ولا يحقره، ولا يستصغره، والله أعلم.

▲ 2- الفصل الثاني في العجب:

روى عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: " بينما رجل يتبختر في بردين وقد أعجبت نفسه، خسف الله به الأرض، فهو يتجلجل (1) (أي: يغوص في الأرض حين يخسف به، والتجلجل: الحركة مع الصوت) " فيها إلى يوم القيامة". وقال صلى الله

عليه وآله وسلم : "ثلاث مهلكات : شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه". وروى عن ابن مسعود أنه قال: الهلاك في شيئين: العجب والقنوط. وإنما جمع بينهما لأن السعادة لا تنال إلا بالطلب والتشمير، والقنوط لا يطلب، والمعجب يظن أنه قد ظفر بمراده فلا يسعى. قال مطرف رحمه الله: لأن أبيت نائماً وأصبح نادماً، أحب إلى من أن أبيت قائماً وأصبح معجباً. واعلم: أن العجب يدعو إلى الكبر، لأنه أحد أسبابه، فيتولد من العجب الكبر، ومن الكبر الآفات الكثيرة، وهذا مع الخلق. فأما مع الخالق، فإن العجب بالطاعات نتيجة استعظامها، فكأنه يمن على الله تعالى بفعلها، وينسى نعمته عليه بتوفيقه لها، ويعمى عن آفاتها المفسدة لها. وإنما يتفقد آفات الأعمال من خاف ردها دون من رضيها وأعجب بها. والعجب إنما يكون بوصف كمال من علم أو عمل، فإن انضاف إلى ذلك أن يرى حقاً له عند الله إدلالاً، فالعجب، يحصل باستعظام ما عجب به،

والإدلال يوجب توقع الجزاء، مثل أن يتوقع إجابة دعائه وينكر رده.

▲ 1- فصل في علاج العجب

اعلم أن الله سبحانه هو المنعم عليك بإيجادك وإيجاد أعمالك، فلا معنى لعجب عامل بعمله، ولا عالم بعلمه، ولا جميل بجماله، ولا غني بغناه، إذ كل ذلك من فضل الله تعالى، وإنما الأدمي محل لفيض النعم عليه، وكونه محلاً له نعمة أخرى. فإن قلت: إن العمل حصل بقدرتك ولا يتصور العمل إلا بوجودك ووجود عملك وإرادتك وقدرتك فمن أين قدرتك، وكل ذلك من الله تعالى لا منك، فإن كان العمل بالقدرة فالقدرة مفتاحه، وهذا المفتاح بيد الله تعالى، وما لم تعط المفتاح لا يمكنك العمل كما لو قعدت عند خزنة مغلقة لم تقدر على ما فيها إلا أن تعطى مفتاحها. وفي "الصحيحين" من حديث أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: " **لن يدخل أحداً منكم عمله الجنة، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: "ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمته منه وفصل".** واعلم: أن العجب يكون بالأسباب التي يقع بها الكبر، وقد سبق ذكرها وعلاجها. ومن ذلك العجب بالنسب، كما يتخيل الشريف أنه ينجو بشرف آبائه، وعلاجه أن يعلم أنه متى خالف آبائه، وظن أنه ملحق بهم، فقد جهل، وإن اقتدى بهم، فإنه لم يكن العجب من أخلاقهم، بل الخوف والإزراء على النفس. وإنما شرفوا بالطاعة المحمودة، لا بنفس النسب. قال الله تعالى: **{إن أكرمكم عند الله أتقاكم}** [الحجرات: 13]، وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: " **يا فاطمة، لا أغنى عنك من الله شيئاً.**"

فإن قلت: إنما يرجو الشريف أن يشفع فيه ذوو قرابته.

فالجواب: أن كل المسلمين يرجون الشفاعة، وقد يشفع في الشخص بعد إحراقه بالنار، وقد يقوى الذنب فلا تنجى الشفاعة. وفي "الصحيحين" من حديث أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: " **لا ألفين (2) "أحدكم يحيى يوم القيامة على رقبتة بغير له رغاء، فيقول: يا رسول الله، أغثنى. فأقول: لا أملك لك شيئاً، قد أبلغتك".** ومثل المنهمك في الذنوب اعتماداً على رجاء الشفاعة، كمثل المريض المنهمك في الشهوات، اعتماداً على طبيبه الحاذق المشفق، وذلك جهل، فإن اجتهاد الطبيب، ينفع بعض الأمراض لا كلها. ويوضح هذا أن سادات الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين كانوا يخافون من الآخرة، فكيف يتكل من ليس في مثل مراتبهم؟! ومن ذلك العجب بالرأي الخطأ، كما قال الله تعالى: **{أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً}** [فاطر: 8]. وعلاج هذا أشد من علاج غيره، فإن هذا متى كان معجباً برأيه لم يصغ إلى نصح ناصح، وكيف يترك ما يعتقد نجاه؟! وإنما علاجه في الجملة أن يكون متهماً لرأيه أبداً، لا يغتر به، إلا أن يشهد له قاطع من كتاب، أو سنة أو دليل عقلي جامع لشروط الأدلة، ولن يعرف ذلك إلا بمجالسة أهل العلم وممارسة الكتاب والسنة.

والأولى لمن يتفرغ لاستغراق العمر في العلم أن لا يخوض في المذاهب، ولكن يقف عند اعتقاد الجمل، وأن الله سبحانه واحد لا شريك له، {ليس كمثل شيء وهو السميع البصير}، وأن رسول الله صادق فيما جاء به ويؤمن بما جاء به القرآن من غير بحث ولا تنقير، ويصرف زمنه في التقوى، وأداء الطاعات، فمتى خاض في المذاهب ورام ما لا يصل إلى معرفته، هلك

خامس وعشرون كتاب الغرور وأقسامه ودرجاته

ومن الناس من غرته الدنيا، فقال: النقد خير من النسيئة، والدنيا نقد، والآخرة نسيئة، وهذا محل التلبس، فإن النقد لا يكون خيراً من النسيئة، إلا إذا كان مثل النسيئة، ومعلوم أن عمر الإنسان بالإضافة إلى مدة الآخرة ليس بجزء من ألف جزء إلى أن ينقطع النفس، وإنما أراد من قال: النقد خير من النسيئة، إذا كانت النسيئة مثل النقد، وهذا غرور الكفار. فأما ملابسو المعاصي مع سلامة عقائدهم، فإنهم قد شاركوا الكفار في هذا الغرور، لأنهم أثروا الدنيا على الآخرة، إلا أن أمرهم أسهل من أمر الكفار، من جهة أن أصل الإيمان يمنعهم من عقاب الأبد. ومن العصاة من يغتر، فيقول: إن الله كريم، وإنما تتكل على عفو، وربما اغتروا بصلاح آبائهم. وقد قال العلماء: من رجا شيئاً طلبه، ومن خاف شيئاً هرب منه، ومن رجا الغفران مع الاصرار، فهو مغرور. وليعلم أن الله تعالى مع سعة رحمته شديد العقاب، وقد قضى بتخليد الكفار في النار، مع أنه لا يضره كفرهم، وقد سلب الأمراض والمحن على خلق من عباده في الدنيا، وهو سبحانه قادر على إزالتها، ثم خوفنا من عقابه، فكيف لا نخاف؟! فالخوف والرجاء سائقان يبعثان على العمل، وما لا يبعث على العمل فهو غرور. يوضح هذا أن رجاء أكثر الخلق يحملهم على البطالة، وإيثار المعاصي. والعجب أن القرن الأول عملوا وخافوا، ثم أهل هذا الزمان أمنوا مع التقصير وإطمأنوا، أتراهم عرفوا من كرم الله تعالى ما لم يعرف الأنبياء والصالحون. ولو كان هذا الأمر يدرك بالمنى، فلم تعب أولئك وكثير بكأؤهم؟! وهل ذم أهل الكتاب بقوله: [{بأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا}](#) [الأعراف: 169]، إلا لمثل هذا الحال؟! وأما من اغتر بصلاح آبائه، فهلا يذكر قصة نوح عليه السلام مع ابنه، وإبراهيم عليه السلام مع أبيه، ومحمد مع عمه صلى الله عليه وآله وسلم وعلى سائر النبيين. ويقرب من هذا الغرور، غرور أقوام لهم طاعات ومعاصي، إلا أن معاصيهم أكثر، وهم يظنون أن حسناتهم ترجح، فترى الواحد منهم يتصدق بدرهم ويكون قد تناول من الغضب أضعاف ذلك، ولعل الذي تصدق به من المغصوب، ويتكل على تلك الصدقة، وما هو إلا كمن وضع درهما في كفه وألفاً في أخرى، ثم رجا أن يرجح الدرهم بالآلاف. ومنهم من يظن أن طاعاته أكثر من معاصيه، وسبب ذلك أنه يحفظ عدد حسناته، ولا يحاسب نفسه على سيئاته، ولا يتفقد ذنوبه، كالذي يستغفر الله ويسبحه مائة مرة في اليوم ثم يظل طول النهار يغتاب المسلمين، ويتكلم بما لا يرضى، فهو ينظر في فضائل التسبيح والاستغفار، ولا ينظر في عقوبة الغيبة والكلام المنهي عنه.

▲ 1- فصل [الاغترار واقع بالعلماء والعباد]

ويقع الاغترار في الأغلب في حق أربعة أصناف: العلماء، والعباد، والمتصوفة، والأغنياء.

▲ **الصف الأول: العلماء فأما أهل العلم،** فالمغترون منهم فرق أحكموا العلوم الشرعية والعقلية، وأهملوا تفقد الجوارح وحفظها عن المعاصي، وإلزامهم الطاعات، واغترروا بعلمهم، وظنوا أنهم من الله بمكان، ولو نظر هؤلاء بعين البصيرة، علموا أن علم المعاملة لا يراد به إلا العمل، ولولا العمل لم يكن له قدر. قال الله تعالى: [{قد أفلح من زكاه}](#) [الشمس: 9] ولم يقل: قد أفلح من تعلم كيف يزكياها، فإن تلا عليه الشيطان فضائل أهل العلم، فليذكر ما ورد في العالم الفاجر، كقوله تعالى: [{فمثلته كمثل الكلب إن](#)

تحمّل عليه بلهث أو تتركه بلهث} [الأعراف: 176]، و{كمثل الحمار يحمل أسفاراً} [الجمعة: 5]. ومنهم فرقة أخرى أحكموا العلم والعمل الظاهر، ولم يتفقوا قلوبهم ليمحووا الصفات المذمومة منها، كالكبر والحسد والرياء، وطلب العلو، وطلب الشهوة، فهؤلاء زينوا ظاهرهم، وأهملوا بواطنهم، ونسوا قوله صلى الله عليه وآله وسلم: "إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم". فتعاهدوا الأعمال، ولم يتعاهدوا القلوب، والقلب هو الأصل، إذ لا ينجو إلا من أتى الله بقلب سليم. ومثال هؤلاء كمثّل رجل زرع زرعاً، فنبت معه حشيش يفسده، فامر بقلعه، أخذ يجر رؤوسه وأطرافه ويترك أصوله، فلم تنزل أصوله تقوى. وفرقة علموا أن هذه الأخلاق الباطنة مذمومة، إلا أنهم بعجزهم بأنفسهم يظنون أنهم منفكون عنها، وأنهم أرفع عند الله من أن يتلهم بذلك، وإنما يبتلى بذلك العوام دون من بلغ مبلغهم من العلم، فإذا ظهر عليهم مخايل الكبر والرياسة. قال أحدهم: ما هذا بكبر، وإنما هو طلب عز الدين، وإظهار شرف العلم، وإرغام المبتدعين، فإني لو لبست الدون من الثياب، وجلست في الدون من المجالس، شمتت بى أعداء الدين، وفرحوا بذلى، وفى ذلى ذل الإسلام، وينسى الغرور، وأن إبليس هو الذي سول له هذا بدليل أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه كانوا يتواضعون ويؤثرون الفقر والمسكنة. وقد روينا عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه لما قدم الشام عرضت له مخاضة، فنزل عن بعيره، ونزع خفيه وأمسكهما، وخاض الماء، ومعه بعيره، فقال له أبو عبيدة: لقد صنعت اليوم صنعا عظيما عند أهل الأرض، فصك في صدره وقال: أوه لو غيرك يقول هذا يا أبا عبيدة. إنكم كنتم أذل وأحقر الناس، فأعزكم الله برسوله، فمهما تطلبوا العز بغيره يذلكم الله. وفى رواية عنه: لما قدم الشام، استقبله الناس وهو على بعيره. قيل له: لو ركبت برذونا تلقى به عظماء الناس ووجوههم؟ فقال عمر رضى الله عنه: لا أراكم هاهنا، إنما الأمر من هاهنا -وأشار بيده إلى السماء- خلوا سبيل جملي. ثم العجب من مغرور يطلب عز الدنيا بالثياب الرفيعة، والخيول الفارهة ونحو ذلك، وإذا خطر له خاطر الرياء قال: إنما غرضي بهذا إظهار العلم والعمل، لاقتداء الناس بى ليهتدوا إلى الدين، ولو كان هذا قصده لفرح باقتداء الناس بغيره كما يفرح باقتدائهم به، لأن من كان قصده صلاح الخلق يفرح بصلاحتهم على يد من كان، وكذلك من يدخل منهم على سلطان، ويتودد إليه، ويشنى عليه، ويتواضع له ويقول: إنما غرضي بهذا أن أشفع فى مسلم عنه الضرر، والله يعلم أنه لو أظهره لبعض أقرانه قبول عند السلطان لثقل عليه ذلك. وقد ينتهي غرور بعضهم أنه يأخذ من مالهم الحرام ويقول: هذا مال لا ملك له، وهو لمصالح المسلمين، وأنت إمام من أئمتهم، فيغير بهذا التلبس من جهة نظره إلى نفسه. وربما كان دجالاً من الدجالين من جهة قوله: هذا مال لا ملك له. وغاية الأمر وقوع الاختلاط فى الأموال، وذلك لا يمنع كونها حراماً، وقد يكون عالماً بمن أخذ منه المال وفرقة أخرى أحكموا العلم، وطهروا جوارحهم وزينوها بالطاعات، وتفقدوا قلوبهم بتصفيتها من الرياء والحسد والكبر ونحو ذلك، ولكن بقيت فى زوايا القلب خفايا من مكائد الشيطان وخدع النفس لم يفتنوا لها وأهملوها، فترى أحدهم يسهر ليله وينصب (1) نهاره فى جمع العلوم وترتيبها وتحسين ألفاظها، ويرى أن باعته على ذلك الحرص على إظهار دين الله تعالى، وربما كان الباعث لذلك طلب الذكر وانتشار الصيت، ولعله لا يخلو فى تصنيفه من الثناء على نفسه، إما صريحاً بالدعاوى الطويلة العريضة، وإما ضمناً بالطعن فى غيره ليبين فى طعنه فى غيره أنه أفضل من ذلك الغير، وأعظم منه علماً. فهذا وأمثاله من خفايا العيوب التي لا يفتن لها إلا الأكياس الأقوياء، ولا مطعم فيه لأمثالنا من الضعفاء، إلا أن أقل الدرجات أن يعرف الإنسان عيوب نفسه، ويحرص على صلاحها.

ومن سرته حسنته وساءته سيئته، فهو مرجو أمره، بخلاف من يزكى نفسه ويظن أنه من خيار الخلق. فهذا غرور الذين حصلوا العلوم المهمة، فكيف بالذين قنعوا من العلوم بما لا يهمهم وتركوا المهم. فمنهم من اقتصر على علم الفتاوى فى الحكومات والخصومات وتفاصيل المعاملات الدنيوية الجارية بين الخلق لصلاح المعاش، وربما ضيعوا الأعمال

الظاهرة وارتكبوا بعض المعاصي من الغيبة والنظر إلى ما لا يحل، والمشي إلى ما لا يجوز، ولم يجرسوا قلوبهم عن الكبر والحسد والرياء وجميع المهلكات، فهؤلاء مغرورون من وجهين: أحدهما من حيث العمل، والآخر من حيث العلم. ومثالهم مثال المريض إذا تعلم نسخة الدواء واشتغل بتكراره وتعليمه، لا بل مثلهم مثل من به علة البرسام وهو مشرف على الهلاك، فاشتغل بتعلم دواء الاستحاضة، وجعل يكرر ذلك، وذلك غاية الغرور. وسبب غروره ما سمع في النقل من تعظيم الفقه، ولم يدر أن الفقه هو الفقه عن الله تعالى، ومعرفة صفاته المخوفة والمرجوة، ليستشعر القلب الخوف ويلزم التقوى. وقد قال الله تعالى: **{فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين}** الآية [التوبة: 122]. والذي يحصل له الإنذار غير هذا العلم، فإن مقصود هذا العلم حفظ الأموال بشروط

المعاملات، وحفظ الأبدان بالأموال، ودفع القتل والجراحات والمال في طريق الله تعالى آله، والبدن مركب. وإنما العلم المهم معرفة سلوك الطريق، وقطع عقابات القلب التي هي من الصفات المذمومة، فهي الحجاب بين العبد وبين الله تعالى. ومثال من اقتصر على ذلك، كمثل من اقتصر في سلوك الحج على علم خرز الراوية والخف، ولا شك أنه لابد من ذلك: ولكن ليس من الحج في شيء. ومن هؤلاء من اقتصر على علم الخلاف، ولم يهتم إلا طريق المجادلة، والإلزام، والإفحام، ودفع الحق لأجل الغلبة، فهو أسوأ حالاً ممن ذكر قبلهم، وجميع دقائق الجدل في الفقه بدعة لم يعرفها السلف. وأما أدلة الأحكام، فيشتمل عليها علم المذهب، وهي كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم. وأما حيل الجدل، من الكسر، والقلب، وفساد الوضع والتركيب، والتعدية فإنما أبدعت لإظهار الغلبة والإفحام. وفرقة أخرى اشتغلوا بعلم الكلام والمجادلة في الأهواء، والرد على المخالفين. ثم هؤلاء طائفتان: ضالة، ومحقة، فالضالة التي تدعو إلى غير السنة، والمحقة التي تدعو إلى السنة، والغرور شامل لجميعهم. أما الضالة، فاغترارها ظاهر، وأما المحقة فاغترارها من حيث إنها ظنت أن الجدل أهم الأمور، وأفضل القربات في دين الله تعالى، وزعمت أنه لا يتم لا حد دينه ما لم يبحث، وأن من صدق الله ورسوله من غير تحرير دليل، فليس بكامل الإيمان، فلهذا الظن الفاسد قطعوا أعمارهم في تعلم الجدل والبحث عن المقالات، وعميت بصائرهم، فلم يلتفتوا إلى القرن الأول، وأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم شهد لهم بأنهم خير الخلق، وأنهم قد أدركوا كثيراً من البدع والهوى، فلم يجعلوا أعمارهم ودينهم عرضاً للخصومات والمجادلات، ولم يشتغلوا بذلك عن تفقد قلوبهم وجوارحهم، بل لم يتكلموا فيه إلا لضرورة رد الضلال، فإن رأوه مصراً على بدعته هجروه من غير ممارسة ولا جدل. وقد روي في الحديث: **"ما ضل قوم بعد هدى إلا أوتوا الجدل"** وفرقة أخرى اشتغلوا بالوعظ، وأعلاهم رتبة من يتكلم في أخلاق النفس وصفات القلب، من الخوف والرجاء والصبر والشكر والتوكل والزهد واليقين والإخلاص، وهم يظنون أنهم إذا تكلموا بهذه الصفات وهم منفكون عنها أنهم من أهلها، فهؤلاء يدعون إلى الله وهم هاربون منه، فهم أعظم الناس غرة. ومن هؤلاء من يعدل عن المنهاج الواجب في الوعظ إلى الشطح وتلفيق كلام خارج عن قانون الشرع والعقل طلباً للأغراب ومنهم من يستشهد بأشعار الوصال والفراق، وغرضهم أن يكثر الصياح مجالسهم والتواجد، ولو على أغراض فاسدة، فهؤلاء شياطين الإنس. ومنهم فرقة استغرقوا أوقاتهم في سماع الحديث، وجمع رواياته، وأسانيده الغربية والعالية، فهم أحدهم أن يدور البلاد، ويرى الشيوخ ليقول: أنا أروي عن فلان، ولقيت فلاناً، ولى من الإسناد ما ليس لغيري. ومنهم فرقة اشتغلوا بعلم النحو واللغة والشعر، وزعموا أنهم علماء الأمة، وأذهبوا أعمارهم في دقائق النحو واللغة، ولو عقلوا لعلموا أن مضيع عمره في معرفة لغة العرب كالمضيع عمره في معرفة لغة الترك، وإنما فارقتها لغة العرب لأجل ورود الشريعة بها، فيكفى من اللغة على الغربيين: غريب القرآن، والحديث، ومن النحو ما يقوم به اللسان. فأما التعمق إلى درجات لا تتناهى، فذلك يشغل عما هو أجود منه وألزم. ومثال التعمق في ذلك، مثال من ضيع عمره في تصحيح مخارج الحروف في القرآن، مقتصراً على ذلك، وذلك غرور، لأن المقصود من الحروف المعاني، وإنما الحروف ظروف وأدوات، ومن احتاج إلى شرب

السكنجيين لإزالة الصفراء، فضع عمره فى تحسين القدح الذي يشرب فيه، فهو مغرور، والسعيد من أخذ من كل شئ من هذا حاجته المهمة لا غير، وتجاوز إلى العمل، واجتهد فيه وفى تصفيته من الشوائب، فهذا هو المقصود. وفرقة أخرى عظم غرورهم، فوضعوا الحيل فى دفع الحقوق، وظنوا أن ذلك ينفعهم، بل ذلك غرور، فان الإنسان إذا ألجأ زوجته إلى أن تبرئه من حقها لم يبرأ فيما بينه وبين الله تعالى. وكذلك هبة الرجل مال الزكاة فى آخر الحول لزوجته، واتهابه مالها لإسقاط الزكاة، ونحو ذلك من أنواع الحيل.

▲ **الصف الثاني: أرباب التعبد والعمل، وهم فرق:** فرقة أهملوا الفرائض واشتغلوا بالنوافل الفضائل، وربما تعمقوا فى استعمال الماء حتى خرجوا إلى الوسوسة فى الوضوء، فترى أحدهم لا يرضى بالماء المحكوم له بالطهارة شرعاً، بل يقدر الاحتمالات البعيدة فى التنجس، ولا يقدر ذلك فى مطعمه، فلو انقلب هذا الاحتياط من الماء إلى المطعم، لكان أشبه بسير السلف، فإن عمر رضى الله عنه توفياً من جرة نصرانية مع ظهور احتمال النجاسة، وكان مع هذا يدع أنواعاً من الحلال خوفاً من الوقوع فى الحرام. **وقد صح أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم توفياً من مزادة مشركة (2)**. ثم منهم من يخرج إلى الإسراف فى الماء، ويطول به الأمر، حتى تضع الصلاة ويخرج وقتها. ومنهم من غلبت عليه الوسوسة فى تكبيرة الإحرام فى الصلاة، حتى ربما فاتته ركعة مع الإمام.

ومنهم من يتوسوس فى إخراج حروف الفاتحة وسائر الأذكار من مخارجها، فلا يزال يحتاط فى التشديدات، والفرق بين الضاد والطاء فوق الحاجة، ونحو ذلك، بحيث يهتم بذلك حتى لا يتفكر فيما سواه، ويذهل عن معنى القرآن والاتعاظ به، وهذا من أقبح أنواع الغرور فان الخلق لم يتكلفوا من تحقيق مخارج الحروف فى تلاوة القرآن إلا بما جرت به العادة فى الكلام. ومثال هؤلاء مثال من حمل رسالة إلى سلطان، فأخذ يؤدى الرسالة بالتأنق فى مخارج الحروف وتكراره، وهو غافل عن مقصود الرسالة ومراعاة حرمة المجلس، فما أحرأه بالطرد والتأديب. وفرقة أخرى اغتروا بقراءة القرآن، فهم يهدونه هذا، وربما ختموا فى اليوم مرتين، فلسان أحدهم يجرى به وقلبه يتردد فى أودية الأمانى، ولا يتفكر فى معاني القرآن ولا يتعظ بمواعظه، ولا يقف عند أوامره ونواهيه، فهذا مغرور يظن أن المقصود من القرآن التلاوة فقط. ومثال ذلك، مثال عبد كتب إليه موله كتاباً يأمره فيه وينهاه، فلم يصرف عنايته إلى فهمه والعمل به، بل اقتصر على حفظه وتكراره، ظاناً أن ذلك هو المراد منه، مع مخالفته أمر موله ونهيه. ومنهم من يلتذ بصوته بالقرآن، معرضاً عن معانيه، فينبغي أن يتفقد قلبه فيعرف هل التذاذه بالنظم، أو بالصوت، و بالمعاني.

وفرقة أخرى اغتروا بالصوم وأكثروا منه، وهم لا يحفظون ألسنتهم عن الغيبة والفضول، ولا بطونهم من الحرام عند الإفطار، ولا خواطرهم عن الرياء. ومنهم من اغتر بالحج، فيخرج إليه من غير خروج عن المظالم، وقضاء الديون، واسترضاء الوالدين، وطلب الزاد الحلال، وقد يفعلون ذلك بعد سقوط فرض الحج، ويضيعون فى الطريق العبادة والفرائض ويعجزون عن طهارة الثوب والبدن، ولا يحترزون من الرفث والخصام، وهم مع ذلك يظنون أنهم على خير وهم مغرورون. وفرقة أخرى أخذوا فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ونسوا أنفسهم. ومنهم من يؤم فى مسجد، ولو تقدم عليه أروع منه وأعلم، ثقل عليه. ومنهم من يؤذن ويظن أن ذلك لله، ولو أذن غيره فى غيبته، أشد عليه ذلك وقال: قد زاحمني فى مرتبتي. ومنهم من يجاور بمكة أو المدينة وقلبه متعلق ببلاده، وقول الناس: فلان مجاور بمكة أو المدينة، ثم إنه يجاور ويطمع فى أوساخ الناس، وقد يجمع ذلك ويشح به ويجمع له جملة من المهلكات. وما من عمل إلا وفيه آفات، فمن لم يعرفها وقع فيها، ومن أراد أن يعرفها، فليظن فى كتابنا هذا، فينظر فى آفات الرياء

الحاصل فى العبادات من الصوم والصلاة وفى جميع القربات فى الأبواب المرتبة فى هذا الكتاب، وإنما الغرض الآن الإشارة إلى مجامع ما سبق.

وفرقه أخرى زهدت فى المال، وقنعت بالدون من اللباس والطعام، وقنعت من المسكن بالمساجد، فظنت أنها أدركت رتبة الزهاد، وهم مع هذا شديدو الرغبة فى الرياسة والجاه، فقد تركوا أهون الأمورى وباؤوا بأعظم المهلكين. وفرق أخرى حرصت على النوافل، ولم تعتن بالفرائض، فترى أحدهم يفرح بصلاة الضحى وصلاة الليل، ولا يجد للفريضة لذة. ولا يحرص على المبادرة إليها فى أول الوقت، وينسى قوله صلى الله عليه وآله وسلم فيما يرويه عن ربه عز وجل: "ما تقرب المتقربون إلا بمثل أداء ما افترضت عليهم" ▲

الصف الثالث: المتصوفة

والمغرورون منهم فرق:

فرقة منهم اغتروا بالزى والنطق والهيئة، فتشبهوا بالصادقين من الصوفية بالظاهر، ولم يتعبوا أنفسهم فى المجاهدة والرياضة، ثم هم يتكالبون على الحرام والشبهات وأموال السلاطين ويمزق بعضهم أعراض بعض إذا اختلفوا فى غرض، وهؤلاء غرورهم ظاهر ومثالهم مثال عجوز سمعت أن الشجعان والأبطال من المقاتلين تثبت أسماءهم فى الديوان، ويقطع كل واحد منهم قطراً من أقطار الأرض، فاشتاققت نفسها إلى ذلك، فلبست درعاً ووضعت على رأسها مغفراً، وتعلمت من رجز الأبطال أبياتاً، وتعلمت زيمهم وجمع شمائلهم، ثم توجهت إلى العسكر، فكتب اسمها فى ديوان الشجعان، فلما حضرت فى ديوان العرض، أمرت بتجريد المغفر والدرع لينظر ما تحته وتمتحن بالمبارزة، فلما جردت إذا هي عجوز ضعيفة زمنة، فقيل لها: جئت تستهزئين بالملك وأهل حضرته، خذوها وألقوها بين أيدي الفيل، فألقيت إليه. فهكذا يكون حال المدعين التصوف فى القيامة إذا كشف عنهم الغطاء، وعرضوا على الحاكم الأكبر الذي ينظر إلى القلب لا إلى المرقعات والزي. وفرقة أخرى ادعت علم المعرفة، ومشاهدة الحق، ومجاورة المقامات والأحوال، والوصول إلى القرب، ولا يعرفون من تلك الأمور إلا الأسماء، فترى أحدهم يردد لها ويظن أن ذلك أعلى من علم الأولين والآخرين، فهو ينظر إلى الفقهاء والمحدثين وأصناف العلماء بعين الازدراء، فضلاً عن العوام، حتى إن بعض العامة يلازمهم الأيام الكثيرة، ويتلقف منهم تلك الكلمات المزيفة، ويرددها كأنه يتكلم عن الوحى، ويحتقر فى ذلك جميع العلماء والعباد، ويقول: إنهم محجوبون عن الله، وأنه هو الواصل إلى الحق، وأنه من المقربين، وهو عند الله من الفجار المنافقين، وعند أرباب القلوب من الحمقى الجاهلين، لم يحكم علماً ولم يهذب خلقاً، ولم يراقب قلباً سوى اتباع الهوى وحفظ الهذيان. وفرقة منهم طووا بساط الشرع، ورفضوا الأحكام، وسووا بين الحلال والحرام، وبعضهم يقول: إن الله مستغن عن عملي فلم أتعب نفسي؟ وبعضهم يقول: لا قدر للأعمال بالجوارح، وإنما النظر إلى القلوب، وقلوبنا والهة بحب الله تعالى، وواصلت إلى معرفته، وإنما نخوض فى الدنيا بأبداننا، وقلوبنا عاكفة فى الحضرة الربانية، فنحن مع الشهوات بالظواهر لا بالقلوب، ويزعمون أنهم قد تراقوا عن رتبة العوام، واستغنوا عن تهذيب النفس بالأعمال البدنية، وأن الشهوات لا تصدهم عن طريق الله تعالى لقوتهم فيها، ويرفعون أنفسهم عن درجة الأنبياء، لأن الأنبياء عليهم السلام كانوا يكونون على خطيئة واحدة سنين.

وأصناف غرور أهل الإباحة لا تحصى، وكل ذلك أغاليط ووساوس، خدعهم الشيطان بها، لاشتغالهم بالمجاهدة قبل إحكام العلم، من غير اقتداء بشيخ صاحب علم ودين صالح للاقتداء به. ومنهم فرقة أخرى جاوزوا هذه الطريق، واشتغلوا بالمجاهدة، وابتدؤوا بسلوك الطريق وانفتح لهم باب المعرفة، فلما استنشقوا مبادئ ربح المعرفة، تعجبوا منها

وفرحوا بها وأعجبهم غريبها، فتقيدت قلوبهم بالالتفات إليها والتفكر فيها، وكيفية انفتاح بابها عليهم وانسداده عن غيرهم، وكل ذلك غرور، لأن عجائب طريق الله سبحانه وتعالى ليس لها نهاية. ولو وقف مع كل أعجوبة وتقيدها، قصرت خطاه وجره الوصول إلى القصد، وكان مثاله مثال من قصد ملكاً، فرأى على باب روضة فيها أزهار لم يكن رأى مثلها، فوقف ينظر إليها حتى فاته الوقت الذي يمكن فيه لقاء الملك. ▲

الصنف الرابع: أرباب الأموال:

وهم فرق:

ففرقة منهم يحرسون على بناء المساجد والمدارس والرباطات والقناطر وما يظهر للناس ويكتبون أسماءهم عليها ليتخلد ذكرهم، ويبقى بعد الموت أثرهم، ولو كلف أحدهم أن ينفق ديناراً ولا يكتب اسمه في الموضوع الذي أنفق عليه لشق عليه، ولولا أنه يريد وجه الناس لا وجه الله، لما شق عليه ذلك، فإن الله يطلع عليه، سواء كتب اسمه أو لم يكتبه. بعضهم يصرف المال في زخرفة المساجد، وتزيينه بالنقوش التي هي منهي عنها وشاغلة للمصلين، فإن المقصود من الصلاة الخشوع وحضور القلب، وذلك يفسد قلوب المصلين. فأما إن كان المال الذي صرفه في ذلك حراماً، كان أشد في الغرور. قال مالك بن دينار رحمه الله: أتت رجل مسجداً، فوقف على الباب وقال، مثلى لا يدخل بيت الله، فكتب في مكانه صديقاً. فهذا ينبغي أن تعظم المساجد، وهو أن يرى تلويث المسجد بدخوله فيه بنفسه جنابة على المسجد، لا أن يرى تلويث المسجد بالحرام، أو يزخرف الدنيا منه على الله تعالى، فغرور هذا من حيث أنه يرى المنكر معروفاً. وفرقة أخرى يحفظون الأموال وبمسكونها بخلاً، ثم يشتغلون بالعبادات البدنية التي لا تحتاج إلى نفقة المال، كالصيام والصلاة وختم القرآن، وهم مغرورون لأن البخل مهلك، وقد استولى على قلوبهم،

فهم محتاجون إلى قمعه بإخراج المال، فقد اشتغلوا عنه بفضائل لا تجب عليهم. ومثالهم مثال من دخلت في ثوبه حية، فاشتغل عنها بطبخ السكنجيين لتسكن به الصفراء ومنهم من لا تسمح نفسه إلا بأداء الزكاة فقط، فيخرج الرديء من المال، أو يعطى من الفقراء من يخدمه، ويتردد في حاجته، أو من يحتاج إليه في المستقبل أو من له فيه غرض. ومنهم من يسلم من ذلك إلى بعض الأكابر ليفرقه، لينال بذلك عنده منزلة ويقوم بحوائجه، وكل ذلك مفسد للنية وصاحبه مغرور، لأنه يطلب بعبادة الله تعالى عوضاً عن غيره. وفرقة أخرى من أرباب الأموال وغيرهم، اغتروا بحضور مجالس الذكر، وظنوا أن نفس الحضور يغنيهم عن العمل والاتعاط، وليس كذلك، لأن مجلس الذكر إنما فضل لكونه مرغباً في الخير، وكل ما يراد لغيره إذا لم يوصل إلى ذلك الغير فلا وقع له، وربما سمع أحدهم التخويف، فلا يزيد على قوله: يا سلام سلم، أو أعوذ بالله، ويظن أنه قد أتى المقصود. ومثال هذا كمثل مريض يحضر عند الأطباء فيسمع ما يجري، أو الجائع يحضر عند من يصف له الأطعمة اللذيذة، ثم ينصرف فلا يغنى ذلك عنه. فكذلك سماع وصف الطاعات دون العمل بها، فكل وعظ لم يغير منك صفة تتغير بها أفعالك، فهو حجة عليك.

فإن قيل: فما ذكرته من مداخل الغرور أمر لا يكاد يخلص منه. فالجواب: أن مدار أمر الآخرة على معنى واحد، وهو تقويم القلب، ولا يعجز عن ذلك إلا من لم تصدق نيته، فإن الإنسان لو اهتم بأمر الآخرة كما يهتم بأمر الدنيا لنالها. وقد فعل ذلك السلف الصالح ومن تبعهم بإحسان ▲ . **ويستعان على التخلص من الغرور بثلاثة أشياء.**

العقل: وهو النور الأصلي الذي يدرك به الإنسان حقائق الأشياء.

والمعرفة: التي يعرف بها الإنسان نفسه وربّه ودنياه وأخرته. وفي كتاب المحبة، وشرح عجائب القلب، والتفكير، وكتاب الشكر إشارات إلى وصف النفس، ووصف جلال الله سبحانه. ويستعين على معرفة الدنيا والآخرة بما ذكر في كتاب "ذم الدنيا" وكتاب "ذكر الموت"، فإذا حصلت هذه المعارف، ثار من القلب بمعرفة الله تعالى حب الله، وبمعرفة الآخرة حب شدة الرغبة فيها، وبمعرفة الدنيا شدة الرغبة عنها، فيصير أهم أموره إليه ما يوصله إلى الله تعالى، وينفعه في الآخرة، وإذا غلبت هذه الإرادة على قلب، صحت نيته في الأمور كلها، واندفع عنه كل غرور. فإذا غلب حب الله تعالى على قلبه لمعرفته به وبنفسه، واحتاج إلى الأمر الثالث وهو العلم، ونعنى به العلم بكيفية سلوك الطريق إلى الله تعالى وأفاتها، والعلم بما يقربه منه ويهديه، وجميع ذلك في كتابنا هذا. فيعرف من ريع العبادات والعبادات ما هو محتاج إليه، وما هو مستغن عنه، ويتأدب بأدب الشرع. ويعرف من ريع المهلكات جميع العقبات المانعة من طريق الله تعالى، وهي الصفات المذمومة في الخلق. ويعرف من ريع المنجيات الصفات المحمودة التي لا بد أن توضح خلفاً من المذمومة بعد محوها، فإذا أحاط بجميع ذلك، أمكنه الحذر من الأنواع التي أشرنا إليها من الغرور، والله أعلم.

وإذا فعل جميع ذلك ينبغي أن يكون خائفاً أن يخدعه الشيطان، ويدعوه إلى الرياسة ويخاف عليه أيضاً من الأمن من مكر الله تعالى. ولذلك قيل: والمخلصون علي خطر عظيم (3). وقال الإمام أحمد رحمه الله للشيطان حين قال له عند الموت: فُتني. فقل: لا بعد. فلا ينبغي أن يفارق الخوف قلوب الأولياء أبداً. نسأل الله تعالى السلامة من الغرور، وحسن الخاتمة، إنه قريب مجيب. آخر الغرور. وبه تم ريع المهلكات، ونشرع الآن في ريع المنجيات